الطبعة 02

كحلان نسيم

بصوت خافت

مجموعة قصصية

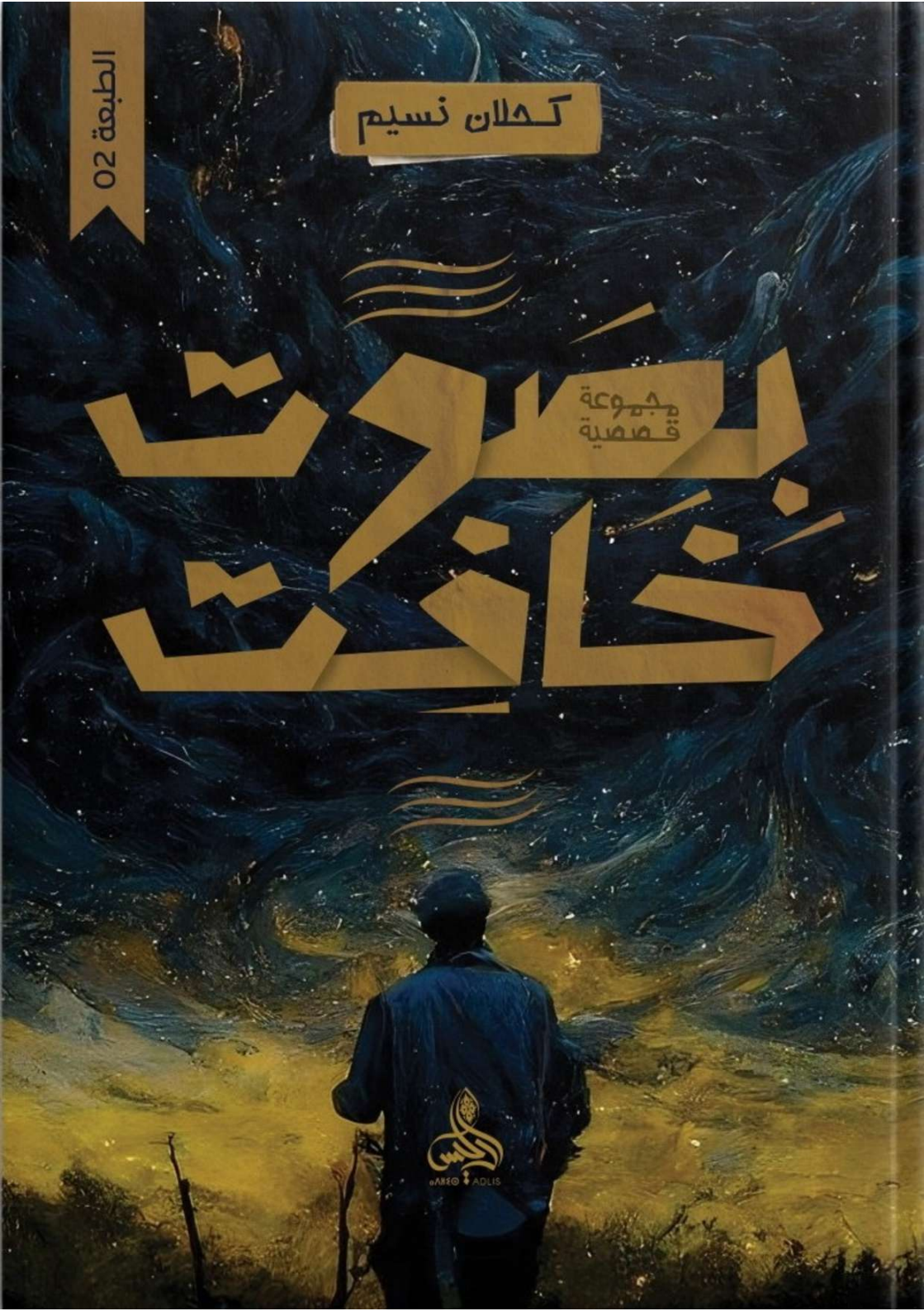

بصوت خافت

الطبعة الثانية: 1446 هـ/ 2024 م
رقم الإيداع القانوني ISBN: 978-9931-243-96-0
الإيداع القانوني: السداسي الثاني/2024

اسم العمل: بصوت خافت
اسم المؤلف: نسيم كحلان
إخراج فني وتدقيق: يونس سلطاني

الناشر: أدليس بلّزمة للنشر والتوزيع
الفيسبوك: أدليس للنشر والترجمة والتصميم
البريد الإلكتروني: Adlisedition@outlook.fr
الهاتف: 0777892744/0672983254

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص والنسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

بصوت خافت

الطبعـة الثانية
2024

كلمةُ الكاتب

أصعبُ ما احتار له عقلي، وما طاب له ركني للتفكير، ووقتي للتدبُّر الدائم في سائح الأحداث من حولي، كمثل عجَب القدر واختلاف السُّبل وطابع الزَّمن وحديثُ الواقع اللاّمتناهي، وإنّي تائهٌ بين منطق الحقيقة وسديم خيالي.

اليومَ غدونا نحملُ خوفنا من قادمِ أيَّامنا، وعجيبُ الحاضر الفارّ منا ليخبرنا بلهفة أنه على قدر كدحنا تُملأ أقداحنا، وما لنا من طاقة تضفي لنا حريّة رسم تفاصيل القادم برأينا، وأيُّ رأيٍ لدينا ونحن أبناءُ اللَّحظةِ في خارطةِ الزَّمن، ضعفاءَ في سجنِهِ وأمام قضبانِهِ الذَّابحةِ كالنَّدم، الخانقةِ كالقلق والمخيفة كالسَّرابِ البعيد.

وأتى علينا حينٌ من الزّمان دافقا بعُجبه، راسمًا بقدَره عجيب أحوالنا، ساردًا بالغيب أقدارنا، حاكما بالجَبر ذواتنا، وما لنا من ضئيل القُدرة لعقولنا بأن نفهم من أمرِهِ شيئا.

بلغتُ من العمر رُبع قرنٍ، وما بلغ من وعيي ورشدي للمعرفةِ إلَّا الضَّئيل القليل، وفي هذا المجرى الصَّغيرِ من عُمري، ومنذ بلغ العقل ملذَّة التأمُّل والتدبُّر، اقتديت بالفكر وتحرّكَ ميولي له، وسكنتُ للاجتهاد على فهم الأمور بدل التعايشِ معها، ومالَ حرصي في الدّنيا إلى الفهمِ لا الكسب، ومع هذا الرّفيق من المبادئ، لم تفِ السّنُون والخبراتُ بوعدها، ففي كُلِّ خطوةٍ خبرة، وفي كُلّ فترةٍ منَ الأعوامِ الخاطفةِ التّي عِشتها، لا أزالُ كالظلِّ الغارقِ في الظَّلام محاوِلًا أن أمدّ بفكري، ألامِسُ شيئا من وهجِ الحقيقةِ الذي اعتدتُ أن أراهُ في كُلِّ مرَّة متلبّسًا بعديدٍ منَ المظاهر والصّور، وإنّي إن مددتُ

بشيءٍ من جهدي لها لأفهمَ أمرهَا وأتطلَّعُ لفحواها، تستّرت واختفت، تارِكَةً لُجّةً من التساؤلات تُضاف إلى آلاف التساؤلات السابقة.

فيَا ليتَ الدّنيا توضّح أقدارها وتبدي أسرارها، ولكن هيهات لأمانينا الواهية في دنيا يزدادُ فيها عمري، وجهلي معه.

أنا غريب، مجرَّد قاصٍّ غريبٍ لا تتبع خطايَ فتظلُّ بنفسك ولا تقرأ حرفي هذا فيضيع وقتك، وإن بادرتَ لإغلاقِ الكتابِ الآن فذلك خير فعل تقوم به.

الزَّمن القادم

ها هي الثواني الأولى تركضُ وأنت قد بدأتَ القصَّة الأولى من كتابي قبل أن تنتهي حكايتي وحكايتكَ في هذا الكتاب، وتضعه جانباً كأنَّ حرفي لم تقرأهُ عيناك، أو لم يبلغ مقصدي فهمك.

وإنّي في هذه اللَّحظات أحاولُ جهاد نفسي في أن أدفع بالكلمات الواحدة تلوَ الأخرى وبصعوبة لإتمام سطرٍ واحدٍ حتّى.

مرادي منك هو شيءٌ سهلٌ وبسيط، أريد منكَ خيالكَ فقط، لأنَّه ليس هناك جسرٌ بيننا أفضل من الخيال، وإنّي قد مددتُ بطرف خيالي في سبع صفحات باقيات أُملي لكَ فيهن قصّتي، وأرتئي لك أن تمسك بطرف الخيط من جهتك ليقوم الجسر بيني وبينك، وتعبر قصّتي إليك.

أكتبُ هذه الكلمات من المستقبلِ البعيد، بعيدًا عن زمانك الذي تعيشُ فيه.

تبدو عليكَ الحيرة مِمّا أرويه عليكَ أيُّها الفردُ القديم، نعم أنا أبعدُ عنكَ بأكثر من ألف سنةٍ من الزّمن، أنا من المستقبلِ البعيد جدًّا.

ولكيلا أخلط عليكَ الأمور، دعني أسردُ لكَ قصّة التاريخ من يومكَ إلى يومي هذا، وأُخبرُكَ بما سيحدث بالقرون القريبة لزمنك.

بدايةً من تاريخ القرن الذي أنت تعيشُ فيه، الذي لا نملكُ لحديث أخباره إلَّا مصادر قليلة، فنحن نعلم أنَّ التكنولوجيا في ذلك الوقت قد وضعت الخطوة الأولى للتقدُّم، وسهّلت الحياة على الإنسان الذي كان يتخبّط في

التخلّفِ لقرونٍ عديدة، ولو بنسبٍ ضئيلة جدًّا، مثل تسهيل التنقل والاتصال، ولم يعرف ذلك العصر شيئا من تكنولوجيا العهد الجديد، وشهِد العالم حروبا كثيرةً جرّاء التضخم السكّاني الهائل، وقلّة الموارد، وجاع النّاس، وانتشرت الأمراض، وانهارت الدُّول العُظمى، وسقط العالم بأزمة الجوع والمرض، فسُميت تلك الفترة بمرحلة الموت الكبرى، وشهدت الأخيرةُ خراب الأرض، ودمار التكنولوجيا واختفائها نهائيا، وبعد ثلاثة قرون كاملة، عندما لم يتبقّ من البشر إلا رُبعَ مليون موزَّعين على القارات الخمس، ظهر جنسٌ جديدٌ للبشريَّة بعد مرحلةِ الموت الكبرى، سمَّاها باحثونا ومؤرِّخونا مرحلةَ العقل الثاني، فلقد حدثت طفرة غريبة على المولودين في القرن الرابع والعشرين، فهم يحملون صفاتًا مختلفةً عن الجنس الأوَّل للبشر، كانوا ذوي قامة متوسطة لا تتعدّى المتر ونصفه، رؤوسهم كبيرة وأجسامهم ممتلئة، وهذه الطفرة التي تلاعبت بجينات الشكل، تلاعبت أيضا بجينات العقل، فجنس "السوبا" كما يسمى في كتب التاريخ، تميَّز بقدرات عقلية جبَّارة ومذهلة، إذ يبدو أمامها جنسنا كقرد الشمبانزي، ولا يعرف المؤرخون طريقة التفكير أو الوسائل المستخدمة لقيامهم بقفزة مجنونة من خراب كاملٍ للأرض، وزوال كل الموارد إلى مرحلة عجيبة من التكنولوجيا، نسمّيها نحن بالعهد الجديد، ومن أهمِّ ما وصلنا من قصصهم في الكتب القديمة أنهم زرعوا في أجسادهم تكنولوجيا متقدمة من أدمغة وأعضاء مستعارة مكنتهم من اكتساب قدرات لا مثيل لها في التفكير والتنقل والتواصل، في فترة تنبض بالغموض والخيال، ووصلوا بعلمهم إلى مستوياتٍ مجنونة في التطور التكنولوجي، والواقع

الافتراضي والزمن المضاعف، والنانو تكنولوجي، وطب البيونك، والسفر عبر الفضاء العميق، واكتشفوا طريقة للتحكُّم في المغناطيسية الأرضية واستغلالها، وأبصروا الذرَّة بعد أن صوّروها وتحكَّموا فيها، واستغلوها ففتقوا بها الأرض لخلق مدن أرضية كبيرة، وعاشوا فيها واستوطنوها، وبلغ بهم العُجب أن ركبوا الأثيرَ وقاربوا في سرعتهم سرعة الضوء، وهم على ذلك لقرنين كاملين، كل عام في تاريخهم يحكي عجيب تقدّمهم وسحر أفكارهم، حتى بلغهم عام الدمار، أو كما ندعوه نحن بعام الفناء، عندما حدثت فاجعة في إحدى القارات التي كانت مركزا للتجارب الذرية، وإثر التزايد الإشعاعي في إحدى المفاعلات النووية، خُسِفَ بكاملِ الأرضِ، واندثرت تكنولوجيا العهد الجديد، وزالتْ كلُّ اليابسة على الأرض، ولم يتبقّ إلا كوكبٌ مائيٌّ وجزيرةٌ واحدةٌ هي قطعة من المشرقِ العربي، أو كما تدعونها اليوم أنتم باليمن.

لم تنتهِ الحكاية هنا، أتذكَّرُ عندما ظهر هناك جنسٌ ثانٍ من البشرية، فقامت هناك حربٌ بينهم وبين البشر الأوائل، والتي أسفرت عن تضائل جنسنا وبقاء بعض الأعداد القليلة التي استوطنت الأراضي المنسيَّةِ باليمن، وكانت تسمى هذه الفئة بالأورجاز، وبقيت منعزلةً عن العالم لمدة قرنين كاملين، ولمّا طرأت حادثة الدَّمار لم يتبقَّ من يابسة الأرض إلَّا الأراضي المنسيَّة، وبذلك زالت سلالةُ البشر الثانيَّة وبقيت سلالة البشر الأولى إلى حدِّ هذا اليوم.

والأورجاز تفرّعت منهم ثلاث أُسَرٍ ساميَة، الفارهون، والنابيون، والعالون، ولم يبقَ منها إلّا العالين، وأمّا عن العائلات الأخرى فقد زالت واندثرت إبَّان الحرب التي شهدت صراعًا على سلطة مملكة الأراضي المنسية، فوقعت

حرب دامية نُحِرَتْ فيها الأعناق بلا رحمة، ونُصِبت فيها المكائد، وكَثُر الهلع في البلاد، وجَنَّد الفارهون والنابيون أتباعهم وخدمهم ومؤيّديهم من الشعب، وانتهت الحرب بزوال السلالتين... خلال أيام الحرب الأخيرة لم يتبقَّ من الطرفين إلا أقليّة، واستغلّ العالون الوضع وقطعوا شوكة السلالتين عن بكرتهم، وبقيت بذلك عائلتنا التي ورثت الأراضي المنسية يتناوب عليها الحكام باختيار شعبها. مرّ على الانفجار حوالي قرنين، والعالون يعيشون حياةً بسيطةً خاليةً من أيّ تطوُّر، وخالية كذلك من الحروب والنزاعات، فنشأت دُوَيلات على حدود البلاد تابعة لحكم المملكة، فنشطت التجارة وسهّلت الحياة، وأنشأَت دُور العلم ودُعِّمت بمبالغ ضخمة بُغية إحياء شيء من تكنولوجيا العهد الجديد. كانت المحاولات الأولى كلُّها فاشلة، لكن مع تطوير الوسائل شيئا فشيئا بدأ العلماء في اكتشاف أشياء عجيبة خُلقتْ من مخلّفات الانفجار الذُرِيّ، فالهواء من فوقنا كان ممتلئًا بشحنات الطاقة الهائلة، فشُيِّدت أبراجٌ لامتصاصها وتحويلها إلى كهرباء ووزعت على جميع أطراف المملكة عن طريق الطبقة الأيونية للأرض.

واكتُشِف أنّ قلب الأرض يحتوي مصادرَ طاقةٍ هائلة، فأُعيد تصميم التكنولوجيا التي استخدمها المصريون القدامى باستخدام قوى "فورتكس الدوامية المغناطيسية" لإلغاء الجاذبية، وتمّ بناء ألاف الأهرامات لإنتاج الطاقة الحرّة والنظيفة والمجانيّة بلا حدود، وسجّل عصرنا قفزة مهولة في فترة تشبه السّحر.

وفي تلك الفترة كانت الأراضي المنسية قد قسّمت إلى منطقتين، الشرق الواسع الذي تنتشر فيه المدن والقرى، أما الغرب المحصور في مساحة بعيدة عن السكان خالٍ، وتسكنه بعض القبائل الصغيرة منذ واقعة الانفجار الذريّ الذي شَوَّه نظام الجيوديسكس بالمنطقة والتي أصبحت تشهد ظواهر غريبة وتذبذبات في نسب الجاذبية وتلوّث الجو بعناصر جديدة، فشدّدت المملكة على أن تكون المنطقةُ منطقةَ أبحاث، وخَصّصت لها منظّمةً علميّةً لدراسة التغيرات فيها، وقد بلغنا خبر بعض الظواهر التي حيّرت العلم والعلماء في تفسيرها.

الهالات السوداء: هالاتٌ سوداءُ ضخمة في صحراء الهُلد، الناتجة عن الانفجار الذريّ، تم تحليل تكوينها فكانت عبارة عن تجمّع كبير لكتلة الطاقة بشكل مكثّف، متمركزة في مكان واحد حتى بلغت قوة شدّتها تشويه الزّمكان، منعدمة الجاذبية، والداخل إليها يختفي إلى الأبد، وبفضل الإمكانات التي وصل إليها علماؤنا تمّ تحليلها جيّدًا واكتشاف أنّ الانفجار قد تلاعب بالنسيج الزمكاني بشكل عجيب، والتغيرات التي سببّتها فوضى الجزيئات خلقت مسالكَ دودية وأنفاقا تربط بين زمننا والماضي، وكل هالة تقود لسنوات سابقة وهالات أخرى تقود إلى عدَّة قرونٍ في الماضي، وقام العلماء بالعديد من التجارب عليها بغية الوصول إلى مرحلةٍ تمكّننا من السفر عبر هذه البوّابات إلى الماضي، لكن تأثيراتها على العناصر الحيّة عجيبة، فبعد وضع بعض الحيوانات تم سحبها مرَّة أخرى، حيث لوحظ أنها تموت في لحظتها، فعند إخراجها يُلاحظ عليها أنها تكبر في السنّ وتشيخ حتى تموت حيث تمرُّ عليها

السنوات مرّ الثواني، وإلى يومنا هذا لم نجد طريقةً تمكّننا من عبور هذه المسالك بأمان، ولقد تمَّت حمايتها مؤخرا لكثرة تهافت المنتحرين عليها بشكل كبير، وتم تعيين المنطقة كمنطقة تجاربٍ لا يطؤها مواطن عادي.

دوائر أزونيا: هي سبع دوائر عملاقة يتعدّى قطر الواحد منها العشرين مترا، موجودة في أقصى الغرب، دوائرٌ من الرِّمال في أماكن يكثر العشب من حولها في المراعي الصحراوية الرملية. تدور حكاياتٌ عند الهُلود وهم السكَّان الأصليون للمنطقة، أنّها مربوطة بعالم آخر خفيّ لا نراه، أمّا رأي العلماء فيقول أنّها إنكماشات طبيعة للتربة لكن بعد أن تمّ الكشف على أنَّ مستويات قوى الجاذبية في تزايد بشكل غير مفهوم. ظاهرة وضعت الوسط العلمي في حيرة من أمرهم، وعند اكتشاف الدوائر أوّل مرة، تشكّلت مجموعة فكرية تدعّم النظريّة القديمة للإجلاء، وهي نظرية إنضمام القنطورسية، تقترح هذه النظرية وجود نظام للكواكب في مجرَّة قنطورس على بعد بارسيك من الأرض، ومن المعروف أنّ مجرة قنطورس تحتوي على عدد كبير من النجوم والعوالم، فلا يكون من المستبعد وجود منظومة كوكبيّة مشابهة للنظام الشمسي، حيث تقول النظرية أنَّ آخر ما تبقَّى من جنس السوبا سافر إلى هذه المجرَّة.

الأيلتا، سوف يأخذُ انتباهكَ وأنت تجول الصَّحراء الهُلدية ليلة اكتمال القمر، فستشهد إحدى تقاليد رجال الهُلود، حيث أنّ الرّجل الهُلدي يخرج في كلِّ ليلة يكتمل فيها القمر بثياب خاصّة قاصدًا الفيافي الخالية وسط الكثبان الرملية اللامعة تحت نور البدر، ليتبصّر في تلك الخيوط النورانية

المنبعثة من كبد السَّماء تنزل في تناغم بديع، وألوان مختلفة لتطوف بالكثبان على شكل حلقات تدور في انسجام بديع، وتسمى هذه الظاهرة عند البدو ببركات العمر، فاعتقادهم يقول إنّ المتعرضَ لهذه الأشعة يحظى ببركة العمر لنفسه ولأهله، فالبدو الهلود لا يعيشون أكثر من الأربعين سنة، وهم على هذه العادات منذ سنين عديدة، ظانين أنهم سيفكّون لعنة الدَّمار الأخيرة التي سَحبت منهم حق العيش لعمرٍ مديد، أمَّا عن تفسير العلماء في عصرنا فهو غامضٌ نوعًا ما، فرصدُ الأشعة كان صعبا، فهي عبارة عن ترددات غير مفهومة وغير قابلة للفك والتبسيط، ولا زال العلم يسعى للوصول إلى حقيقتها، فالبعض من العلماء يرجّح أنّها مخلّفات الانفجار الذريّ، والبعض الآخر يرجّحُ بنسبٍ كبيرة أنّهم راكبو الأثير من سلالة سوبا من العصر الثاني للبشرية، ولقد أصبحوا سجناء بسبب الضرر الذري عليها فمكثوا إلى هذا اليوم محبوسين.

كان هذا بعضا ممّا اكتُشف في المنطقة الغربية، والذي سأختم بهِ رحلتنا القصيرة التي حاولت الإيجاز فيها من خلال طرح أهمّ ما وددت أن أخبركم به، وأنا "أزان" أحد أعضاء لجنة البحث في الجهة الغربية والمكلّف بدراسة تغيرات الهالات السوداء، ولقد توصّلت في الآونة الأخيرة إلى أنَّ إحدى هذه الهالات تقود إلى زمنكم بالضبط، فوددتُ أن أبعث برسالتي هاته إليكم، ولقد قصصت لكم بالإيجاز حديث الأخبار في قادم أيامكم.

تجربة غريبة

الثالث من شهر أيلول، كان اليومُ المنتظر لخليل« طبيب المدينة»، كانت تبدو مدَّة طويلة جدا، فبعد مرور ستة أشهر على تقديمه لبحثه الكامل لوزارة الصحة، جاء يوم الموافقة عليه أخيرا، امتلأ بيته في ذلك المساء بزملائه الأطباء والباحثين، ووُزِّعت المشروبات والحلويات وفُرّشت الموائد بكلِّ أنواع الطعام المختلفة، وتهافت الزوّار بغير توقُّف وامتلأت الباحة الخارجية للمنزل على آخرها، وزارتنا عدّة أسماء أجنبية حينها كمحمود طارق رئيس المخبر القطري، وإسماعيل رخ عضو من أعضاء مجموعة الأبحاث بجامعة هارفارد الأمريكية، وجوزيف سالينا عضو في لجنة اختيار جائزة نوبل للعلوم، والكثير من الأسماء التي ذاع صيتها في ساحة العلوم، أمّا الدكتور خليل فهو يعتبر طبيبا حينا سابقا وطبيبَ مستشفى مايو كلينك حاليا، ورئيسَ نادي الابتكار الطبِّيّ الوطني.

تبدأُ قصّة خليل بعد نجاحه في مسابقة اختيار الاختصاص الطبي بدرجة متقدّمة من جامعة البصة، اختار دون تردد جراحة الأعصاب بعد أن كانت هدفه الأوّل، وكان متفوّقا في سنواته الأربع، فحصل على منحة دراسية لأمريكا، وواصل دراسته هناك لسنتين ثمَّ عاد بعدها ليفتح عيادة متخصصة بحينا، وفي إحدى الأيام كان قد أجرى عملية جراحيةً لعمي الطيب، الذي كان يعاني من ورم دماغي في نصف الكرة الدماغية الأيمن بسبب سرطان الرئة، فكان ذلك منقلب حياة خليل ومفاجأة أدهشت الطب الحديث، فلقد دخل عمي الطيب في غيبوبة لشهرين كاملين، غيبوبة ليست كالتي نعرفها

بتعريفها المعتاد، فبعد إتمام العملية ومرور المدة المتوقعة لعمل المخدر لم يفق عمي الطيب وتبدّلت حالته ودخل في مرحلة عجيبة لم يفهم منها خليل أيّ شيء، ففي الساعات الأولى للغيبوبة كانت حالة الجسم غير اعتيادية فمعدل ضربات القلب والنشاط الهرموني للجسم في حالة مبهمة، حيث كانت تتغير لديه مثل أي إنسان يمارس عادات حياته بشكل عادي وليس شخصا ملقى على السرير، وكان جسمه يلبّي حاجاته الغذائية دون أي مصدر خارجي، وزالت آثار العملية الجراحية مبكّراً، وكانت نتائج الأشعة والتحاليل والفحوصات لا تقود لدليل يفسّر الحالة، تفطّن خليل إلى أنها حالة لم تمر قط بأي مريض من قبل، فانتشر الخبر وتهافت كبار أطباء البلاد عليه دون أن يخرجوا بتفسيرٍ لما قد حدث، ولازال عمي الطيب في تلك الغيبوبة التي حيرّت كبار العقول في الطب، كبرت القضية وقررت الدولة قبول طلب خليل بنقله لمستشفى مايو كلينك للأبحاث الطبية، وكان المريض تحت رعايته، كان المستشفى يحتوي على معدات حديثة ومتطورة ساعدت خليل على تحليل الحالة التي دخل فيها المريض بعد العملية وبمساعدة عدّة أطباء تمّ التصريح أخيراً بمقال -عبر جريدة نيو نولج الأمريكية- صادمٍ وغير متوقعٍ، والذي كان بملخص الحديث: أنّه بعد الرسم الكهربائي للمخ تبين أنّ هناك نشاطًا غير اعتيادي لخلايا المخ، نشاط يدلُّ على أن المريض دخل في عالم آخر من الحياة وأنه يعيش في أبعاد جديدة في حالة لم يسجل لها مثيل عبر التاريخ، اهتز الواقع العلمي وكبرت القضية وتدخلت منظمة الصحة العالمية والأبحاث الدولية وتمَّ تكليف خيرة الأطباء والباحثين لدعم الفريق الطبي، كانت أياما

مليئةً بالشغف لدى الأطباء، بينما كانت التساؤلات والحيرة تكثر في أوساط الناس، هل ما تمَّ التصريح به حقيقة؟ أم هي فقط حالة عصبية نفسية؟ وإن كانت روحانية فما حكم الدين والمنطق فيها؟ الكثير من الكلام الذي ملأ أفواه المحليّين عبر جميع أقطار العالم، حتى جاء اليوم الذي سرق أنظار الجميع، فقد تمّ بث فيديو مباشر على قناة «cnn» الأمريكية بصور حية لغرفة المريض وهو يفتح عينيه بعد دخوله في غيبوبةٍ لشهرين كاملين، كان الأمر مروّعًا فبعد عدة كلمات تكلم بها لفظ أنفاسه الأخيرة، كأنّه فتح عينيه في عالم الموت، وكان كلامه القليل غير المفهوم أنه عاش ثلاث حيوات بطابع وشكل ومكان وزمان مختلف بعضها عن بعض، وكلّما مات في حياة ولد في أخرى، كانت هذه آخر كلماته.

كانت الكلمات قد جمدت جميع من شاهد البث وتركت تساؤلا واحدا، هل ما قاله عمي الطيب حقيقة؟

صرّح الفريق الطبي أن وفاته كانت بسبب تمدّد في عظام الجمجمة وتوسعها نتيجة تضخم المخ وزيادة حجمه في لحظات قياسية قبل موته، والمسالك العصبية في الرأس أتلفت كأنَّ صاعقةً ضربتها!

كان الأمرُ غريبا وغير اعتيادي فنحن مَن نعرف فردية الحياة عند كلِّ واحد منا، وهل كل ما وصلت إليه الإنسانية سيتغير مفهومه من ذلك اليوم. كثر الحديث وتعدّدت التساؤلات، هل الحياة حلم أم حقيقة؟ وما حقيقة الإرتباط بين الروح والنفس والجسد؟ لكن هل نعرف حقا توليفة كل واحد منها؟ وهل المخ هو العقل؟ وما الأعصاب؟ وهل ينحصر دورها في نقل

الرسائل العصبية واستشعار المؤثرات الخارجية من نور وذوق وحرارة فقط؟ أم أنَّ لها دورا آخر نجهله؟ أو أنَّ هذا فقط قليل مما بلغه العلم؟ أم أنَّ هناك جانب غير مُكتشف بعد؟ جانب كشف نفسه بنفسه عند هذا الحادث.

كان الأمر أشبه بتلك التساؤلات التي كنَّا نتغاضى عنها ونعتبرها كمسَلّمات، لكنّنا اليوم أصبحنا مجبرين على الإجابة عنها.

لم يقدر العلماء والباحثون أن يخرجوا بأيّ إجابة بعد تلك الحادثة لعدّة سنوات، كان الأمر أشبه بأحجية، أمّا الطبيب خليل فلقد بقي يعمل في مستشفى مايو كلينك مواصلا كذلك بحثه عن الحقيقة دون يأس، مرَّت أربع سنوات كاملة على الحادثة العلمية، وجاء ذلك اليوم الذي خرج فيه خليل بتصريح زعزع الأوساط العلمية، حيث قال أنَّ بإمكانه إقامة تجربة مشابهة للحالة العجيبة التي دخل فيها المريض، وصرّح بأنّ الأمر الذي أخّره كلَّ هذه المدة، كان تغافله عن تفاصيل ظَنَّها غير منطقية، فخلال تقدّمه لعزاء عائلة المريض أخبرته زوجة المرحوم أن السبب قد يكمن في إدمانه لمشروب المتة مع السجائر، لم يكترث لحديثها آنذاك فقد كان يعرف أن هذه العادة هي سبب الورم الدماغي وليست الحالة العجيبة، فمشروب المتة كان يحتسيه لينقص من الأعراض الأوليّة للورم من التعب والإرهاق والشرود والهزات العصبية، أمّا السيجارة فهي الشيء الذي سبب له سرطان الرئة، كانت معادلة بسيطة بالنسبة لمختص في الأعصاب، لكن في فترته الأخيرة عرف أن المتة تحتوي على مادة قد تكون السبب في التأثير على خلايا الدبق العصبي في الدماغ حيثُ أفقدتها وظيفتها، فأثرت على البيئة الكيميائية للمخ

وأصبحت بعض المحاور العصبية لبعض العصبونات غير معزولة؛ استنتج حينها أنّ هذا هو سبب إتلاف الخلايا العصبية، وكما توقع، فقصور الخلايا الدبقية التي لها قدرة إرسال إشارات كهربائية كانت السبب في إتلاف كامل لخلايا المخ.

نظريته تقول إنّ المادة الغريبة بالمتة سببت قصورا في خلايا الدبق العصبي فأصبحت لا تؤدّي وظيفتها الحيوية وهي عزل المحاور العصبية، فأثّرت الإشارات الكهربائية على الأجزاء غير المعزولة ممّا سبّبت تلفا لجميع الخلايا العصبية على مستوى الرأس، كان الأمر منطقيا لتفسير عِلّة الموت، لكن الحقيقة العلمية هي أن بلوغ هذه المرحلة يتطلب شهرين كاملين، وهي نفس مدة غيبوبة عمي الطيب، فهل هي صدفة أم أن خليل كان يخلط الأمور؟ لم يكن الأمر واقعيا كما تخيّله خليل، فجزّاء إتلاف جميع الخلايا العصبية للمخ كان تشخيص الدماغ في المخابر أمرا تعجيزيا، ولم يتبق إلاّ أمرا واحدا ليثبت نظريته وهي التجربة على دماغ حيّ.

رفض مستشفى مايو كلينك التجربة لعدم تقبّل مجموعة علمائه وباحثيه الفكرة التي اعتبروها فرضية لا حقيقة، ولا شيء يدل على نجاحها، ورغم وجود متطوّعين للتجربة رُفِضَ اقتراحه فاضطرّه ذلك إلى العودة للوطن وطلب ترخيصًا من وزارة الصحة، وبدعم من المخبر القطري تمَّ قبول الطلب.

وكما بدأنا قصتنا بتلك الحفلة التي أقامها خليل في باحة منزله، كانت تلك الليلة ليلة إجراء التجربة في مختبره الخاص.

كان خليل متحمسا جدًّا للتجربة، خاصة بعد دعمه من المختبر القطري بمعدّات فائقة التطور والدقة، كجهاز التصوير الطبقي الإلكتروني والتصوير المغناطيسي الوظيفي والتصوير بالرنين المغناطيسي، وهي أجهزة آمنة لا تستخدم أشعة إكس لتفادي أعراضها الجانبية، وهي فائقة التطوّر تمكّنه من كشف الحقول المغناطيسية التي تولّدها التيارات الصغيرة التي تنتجها الخلايا العصبية النشطة، ورغم أنّ تقنيات التصوير الحديثة غير قادرة على إعلامنا بما نفكر، لكنّها قادرة على تحديد مكانِ حدوث التفكير في الدماغ والتعرف على طبيعة عمل جسم الإنسان على حسب وظيفة الدماغ.

كانت التجربة تقتضي حقن تلك المادة العجيبة بشكل مضاعف على مستوى النخاع الشوكي، فبعد لحظات من الحقن سيتم التأثير المباشر على الخلايا الدبقية وجعلها عاجزة عن أداء دورها، وسيتم دراسة التغيرات عن طريق التصوير الكهربائي للدماغ، ففي حالة تطابقها مع نفس حالة المريض يتم الإبقاء عليها في الدماغ لمدة ساعة، ثم حقن مضاد لكبح وظيفتها حمايةً للدماغ من أي مكروه.

كنت أنا المتبّرع في تلك الليلة، فلقد كان خليل أخي الأكبر ولم يتبادر لذهني أي شك بما توصّل إليه، فاستقبلت الفكرة بصدر رحب واثقا كلَّ الثقة بأفكاره.

ـ هل أنتَ جاهز؟

أجبتُ بصوت فيه رجفة خوف وقليل من العزيمة:

ـ نعم أنا جاهز، بإمكانكَ تخديري الآن.

شعرت بوخزة مؤلمة عند حقني، تبعها ترنُّح في عضلاتي وضعف في مجالها العصبي، وتشكلت أمامي رؤية مزدوجة حتى بهتت الألوان من حولي وأصبح كلّ شيء مظلما، مرّت لحظات بلا وعي، حتى أحسست بشعور غريب في رأسي ونتالت على مسامعي أصواتُ مَن في الغرفة، كانت تبدو بعيدة لكن عقلت ضحكاتهم وفرحتهم، يبدو أنّ الأمر قد نجح، وتبعه خطفة من العدم الحسي، حتى استيقظت على ألم كبير في جسدي كان بإمكاني فتحُ عينيّ ففتحتهما على نور ساطع، ووجدت نفسي في مكان غير المختبر، كنت مستلقيا على ظهري وسط مجموعة من الأشجار تعانق عنان السماء، ثم أبصرت وجه شيخ بلحية بيضاء يصيح ويداه تضغطان على صدري بقوة.

ـ أفق يا جابر أفق يا جابر.

ـ جابر!

انتهت.

يمينة

أنا تامر أعمل في قطاع الأمن المدني ما يقارب العشرين سنة، أشارف الآن على الخمسين من عمري، وقد أوجس لها وعيي خيفة على مرورها كأنّها لحظة عابرة، ولقد وددت من منبري هذا أن أتكلم وأسطر في هذه الأوراق بواقعة حدثت معي في سابق سنيني الماضية، وجاء رأيي بأن أكبح تأجيلي وتردّدي على الكتابة وأكون اليوم جليسكم.

قد يكون أسلوبي ركيكا غير دقيق، ولكنّي قد وفيّت بالإيجاز في الأحداث ذاكرا أهمها.

في إحدى أيام شتاء 2005، أتذكّر فيها جيدا فرحتي بعد أن تمّت ترقيتي إلى منصب رئيس مخفر بعد نجاحي في اجتياز الاختبار الوطني بنجاح، لم تكتمل فرحتي بعد أن تمّ تعييني في إحدى البلديات البعيدة عن ولايتي، حيث كانت أيّامي الأولى عصيبة وكلّ شيء ممل حتى منصبي اللعين، فكرهت فكرة أنّي أتحكم في كل شيء، لكن مع مرور الوقت بلعت ريق الاعتياد وارتسمت خارطة معرفتي بالمنطقة شيئا فشيئا، واتّسع نطاق معرفتي بكتيبة المخفر، وعرفت شخصياتهم وأصولهم وسيرهم، ابتهجت الأيام أكثر بعد أن أيقنت أن نائبي الذي تمّ تعيينه منذ عدة أسابيع، أيقونة فريدة من نوعها فيما يخص تسيير الأعمال، فأزال عن عاتقي الكثير من المهام، وإنّ فِيه روحا قلبت كل أيامي، وانفتح كلٌّ منّا على غيره وراقتني فكاهته وحُسن خُلقه، وطابت لي الأيام بمصاحبته، فأصبح هو الشمعة المتّقدة في جانبي العملي والشخصي.

هكذا كانت أيامي في سنتي الأولى التي امتزجت بدءًا بألوان الغربة لتنتهي بالاعتياد، قبل أن تنقلب الأحداث رأسا على عقب.

كانت الأيام بعد قدوم عامر رائعة، ولكن غيابه لمدة أسبوع عن العمل وعن ملتقانا في كل مساء، ودون أي خبر بمصابه، أثار لديّ قلقا وخفت من أنّ مكروها أصابه، فلا هاتفه يرن ولا أيّ فرد من المخفر يعرف خبره، ولم يره أحد طيلة الأسبوع، قررت حينها أن أنتزع الشك من عقلي، وعزمت على أن أذهب إلى منزله وأستطلع خبره بنفسي.

كانت زيارتي له ذات مساء تحت رذاذ المطر الخفيفة المرتطم بنافذة غرفة عامر، الذي كان مستلقيا بجسده المثير للشفقة، شخص غير الذي أعرفه، أكلت عدة أيام صورته التي اعتدته عليها.

كان عامر طريح الفراش منذ أكثر من سبعة أيام ؛

لا قدرة له على التكلم مع أحد ؛

انطفأ لسانه وغابت شهيته؛

تشوهت صورته وأصبح غير الذي نعرفه؛

والطبيب يقول أنا لا علم لي بكل هذا !

فهو لا يأكل أكثر من طبق طيلة اليوم .

هذا ما أخبرتني به زوجته وهي تذرف الدمع مرارا حزنا على حالة زوجها ويأسا من أمل شفائه.

خرجت من عند عامر في ذلك اليوم أحاول أن ألملم عقلي وأفكاري عن مكروه أعجز الطب الحديث !

مرت الأيام وأنا لا أفارق زيارته بين المستشفى وبيته لفترة علاج لم تغير من حاله شيء، كانت الكلمات التي تملأ المحيط آنذاك من كلام أقاربه وزوجته وكلام الأطباء تفقدني صوابي.

يعاني من تسارع رهيبٍ في النمو، ولا وجود لمرض أو تسمم أو خلل جسدي، ونشاطاته الهرمونية والعصبية مستقرَّة، ولا رجّة في رأسه حتّى يفقد صوته، كان هذا كلامًا غير منطقيّ وأنا أتأمّل تلك التجاعيد والعظام البارزة والبشرة القرمزية والأجفان المتورِّمة، والعينين الحمراوين تنبع منهما نظرة مُرتاع، نظرة كهل في الثمانين يعيش آخر أيامه، كأنَّ النهاية تضع بصماتها عليه، هكذا كان عامر، كأنّ السنين تمر عليه مرّ الأيام، تأكل شبابه في أيام عديدة.

ولم يستطع الطب اكتشاف سرّ هذه اللعنة التي أصابته.

وجاءت الأيّامُ بما هو أسوأ وحملَت الأكتافُ نعشَ عامر الذي فارق الحياة في صمت تاركا أهله على حزنْ شديد.

غيابُ عامر المفاجئ، وملازمته الفراش لا ينطق بحرف! وشيخوخته الغريبة في أقل من شهر، ومفارقته للحياة تاركا أسرته تندب أحناكها، أحسست كأنّ شيئا ينقص هذه القصة العجيبة، التي طوت صفحاتها بصمت دون أن تبوح بحرف عن أسرارها.

مرّت الأشهر وجاء اليوم الذي غيّر مسار القصة إلى منحى لم أتوقعه أبدا، فبعد أن بلغتنا مجموعة من الشكاوي المتتالية لسُكّان حي البصة منددين وبشدة على الأعمال السيئة التي استجدّت على المقبرة وقضت مضاجع نيامها من الموتى، حيث نُبشت وخُربّت معظم القبور في ظروف غامضة لم تقدر أعين الحراس على معرفة مسبّبها، وأثارت تلك الأعمال سخطا في الحي معتبرينها تدنيسا لذكرى موتاهم.

وذهب ظنُّ البعض أنَّها أرواح ليليّة تقتات على عظام الموتى، والبعض منهم جزم على أنّها أعمال إنسٌ لا محالة، فكانت شكواهم إلينا بالمخفر.

في اليوم الأوّل للتَّحقيق، كانت الصورة العامة للحدث بشعة وشنيعة وفيها الكثير من الغموض! فالقبور القديمة منبوشه وأخرى رُدِمت، وأخرى مكشوفٌ عن هياكلها المخنّطة بالكفن البالي، وأجزاء كثيرة من الهياكل العظمية مسروقة، وكتيبات مدسوسة بين الضلوع، ورموز غير مفهومة مكتوبة باللون الأحمر على الجماجم، وخيوط بألوان مختلفة مربوطة ببنان الأصابع، وأكياس سوداء مدسوسة بزوايا مختلفة من القبور.

كنت أعرف معنى كلّ هذا، مفردة واحدة في رأسي: "السحر"، استرجع عقلي مساء ذلك اليوم الكثير من القصص والحكايات التي صادفتها في الروايات، والتي سمعتها على ألسنة الراوين، كنت في حالةٍ مليئة بالريبة فلم تُوقِع بي الحياة في شيء يماثل هذا النوع من القضايا وحتى نظرتي التي أعتبرها سطحية ومتواضعة عن السحر وعالمه فاعتقادي على الدوام بأن العقل أقوى من كل سحر، وأنّه لا داعي للإنسان أن يحرك خوفه تجاه هذه الغيبيات.

وتحركَ فضولي في تلك الليلة مع محرّك البحث، فقرأت العديد من المقالات واطلّعت على العديد من الكتب التي تخص هذا المجال.

وعرفت أن ديننا الإسلامي ما خاض في هذه الأمور أو بيَّن جميع تفاصيلها، ولكن أخبرنا أن هناك ثقلين، عالمنا والآخر عالم الجن، خفي لا تبلغه أبصارنا، وأنها كيانات تفوقنا في التطور والسرعة والقدرات وتعيش أضعاف ما يعيشه البشر، وبحكم أنّنا مسلمون، فنحن نؤمن بهذا الكيان كما يصدّق العارف للعلم بوجود الذرة، الجاذبية، القوة المغناطسية، والكواركات.

والدين يدحض أكذوبة أنّ الجنّ يعي ويعلم بقادم الأحداث وذلك بدليل قرآني لقصة وفاة نبي الله سليمان عليه السلام، وبذلك هي كيانات ضعيفة أمام قدرة الله فينا، وما لهم قدرة ليغيروا من كتاب القدر شيئا، ولا هم كيانات تقدر أن تؤذينا بشيء مادي من المرض والقتل، ولا هي تتشكل على كيانات مخيفة تبصرها أعيننا وما تلك إلّا خيالات للإنس.

وقد كان أكبر تأثير من الجنِّ على الإنس عن طريق الوسوسة، فهي التي تُخَرّب العقل وتستنزفه، فتقود المرء إلى تدمير حياته، ولا يحصل هذا الأمر إلّا إذا كان في القصّة شيطان من الجنّ والإنس، فالأوّل ساحر والآخر جني كافر.

وإنّ تلك الحالات العجيبة التي نصادفها في حياتنا من أشخاص تنطق ألسنتهم بلغات عجيبة وأصوات غريبة وتصرّفات حيوانية، ما هي بتلبس شيطاني أو جني عاشق أو أرواح شريرة، بل حالات نفسية مرضية فهي راجعة للقدرة

المذهلة المصمَّم عليها العقل الباطن، فهو يحفظ كل كلمة نسمعها وكل صورة نبصرها وكل تصرّف نشهده، وجميع الأصوات الغريبة لا يُفَوّتها، وعندما يصيب العقل شذوذٌ بسبب الوساويس تتقلّب شخصية صاحبه، فيتحوّل إلى ناطق بلغة غريبة أو يصرخ بأصوات حيوانية موحشة وتقود هذه الحالة إلى الجنون إذا لم تكن هناك مراقبة للمريض من الأول.

كانت ليلة مليئة بالتحري والقراءة عن الأشياء الغريبة عن هذا العالم، ولقد ضيّقت على نفسي خانقة إياي بالعديد من التّساؤلات عن تلك القبور المنبوشة والعظام المُطَلسَمة، وجاء على حدسي أنّ قصة قبور البصة لها ارتباطٌ بموت عامر الغريب الذي جاء بغيرِ سابقٍ طبيّ واضح.

وصدق حدسي في ذلك، ففي اليوم التالي حضرت إحدى النساء إلى المخفر وكانت قد أحضرت كيسا أسود يحوي أشياء غريبة مخبرة إيّانا أنّها أغراض سحرية وجدتها في إحدى بساتين الريف القريب من البصة.

كان الكيس يحمل أسلاكا معدنية بألوان مختلفة وعظاما آدمية مطلسمة بلغة غريبة، والكثير من الأوراق عليها كتابات غير مفهومة ونجوم سداسية بلون دموي، وناي قديم بثلاثة ثقوب يحمل رموزا غريبة، والأغرب في كلّ هذا دمية من القش تحمل عدة عبارات: مرض، موت، برص، فقر... وصورة عامر!

وأخبرتنا المرأة بأنّها من الرّيف القريب للبصة، وإنّها جارة لبيت عامر القديم، وقد لاحظت في الأيام الماضية امرأة تدفن شيئا بجوار المنزل، وما أخذت ببالها بأن تتبيّن تلك الحادثة إلا بعد وفاة عامر.

وأخبرتنا أيضا عن الجانية، وأن اسمها يمينة، وقد ورثت عملها عن أمها الحاجّة خيرة، وزادت على عمل أمها زيارة القبور ليلا، فهي تخبر زائريها أن الموتى في الليل قيام لا نيام، وهي تطوف بالصالح فيهم وتتبرّك بهم وتجلب بركاتهم لتعالج العقيم والسقيم، فهي تكتب جميع التمائم والرقية، وتشفي جميع الحالات النفسية بيدها المباركة، ويأتيها المريض بالعقم والمجنون والمسحور والنساء العانسات الطالبات لبركة صلاح القبور كما أخبرتهم، وهي على ذلك العمل منذ سنين طوال، تساعدها في ذلك ابنتها الوحيدة، التي لم تفرح بالحياة كثيرا حيث ماتت منذ أشهر، مما تركَ يمينة لا تبرحُ دارها معلنة الحداد على ابنتها لأسبوع كامل.

أصدر المخفر قرارا بفتح تحقيق وتفتيش لمنزل يمينة بعد الذي سمعناه من المرأة.

وما تركني فضولي البوليسي أن أنتظر إلى يوم الغد، وقرّرت أن أزور يمينة كسائر الزائرين لها بقصد التحرّي عن شخصيتها وتحت غطاء مسؤوليتّي الشخصيّة بعيدا عن ترخيص المخفر.

وفي بيتها المكتظ بالزوّار المختلفين في الجنس والسن والحالة، كان أكثر ما أثار فيّ عجباً عندما أدخل أحد الآباء ابنه الذي كان في حالة من الهيجان

والصراخ وأخرجه على صورة هادئة على غير طبعه الأول، وحملت بعض النسوة امرأة عاجزة عن المشي فخرجت راكضة بعدها بدقائق، وكانت هذه الصور تنشر البهجة في قلوب أولئك المنتظرين وكأنّ عيونهم تتكلم لتقول:

«عند الحاجّة يمينة كل الأسقام قابلة للعلاج.»

أمّا أنا فقد تعجبت!

ما كلّ هذا !

وهل لي أن أقول أنّ كلّ ما ورثته يمينة قد غلبت به تكنولوجيا الطب الحديث!

وجاء دوري فدخلت بخطوات مترددة إلى غرفة بِجوّها الثقيل وضوئها الخافت المنسدل على الجدران، معلقٌ عليها مجموعة من النباتات وجماجم الحيوانات، والكثير من القارورات والكتيبات المنظمة في خزانة زجاجية كبيرة، وقرن أيل ضخم ينبسط من خلف كرسي، فاجأتني عليه امرأة ذات شعر أسود كثيف وعينين ضيقتين بنظرة مهيبة وملابس سوداء ورباط عنق أزرق والكثير من الجمال في تفاصيل وجهها العابس.

وبنبرة صوت هزت بجسدي مرتعبا.

ـ كيف حال ابن سعاد وزوج سمية وأب صفاء؟

ـ كانت محقة فيما تقول وأظن أن شياطينها قد أخبروها بكل هذا!

وسألتني بنبرة حازمة:

ـ ما مقصدك وما مبتغاك يا تامر؟

وتحدثت معها بعد أن جمعت العزم والجرأة للحديث.

ـ إنّي أيها المباركة ضيف في مدينتكم كما تعرفين! وما طاب لي فيها مقام البقاء بعد أن سرق الموت مني صديقي، وقد ضاق بي الحال بعيدا عن أسرتي وموطني.

وخاطبتني بصوت هادئ:

ـ لتعلم أيّها الغريب أنّ كلّ مريض زائر يشفى وكل راغب يُمْنى بما أراد، فما زارني مهموم إلّا وزالت عنه كُرَبُ أحواله، فببركتي وبركة القبور سيزول همّك ويُشْفى سقمك.

وأومأت لها راضيا عمّا تقول وتذكّرت تلك الحالات التي رأيتها، أدركتُ حينها أنّني في وكرِ دجّالة عظيمة.

ثمّ تحركت بعد أن عبست في عينيّ لبرهة وأنا أتبلل عرقا ظانا أنها قد كشفت أمري، وأخذت تجمع في سلة صغيرة العديد من الأشياء من خزانتها.

وتقدمت أمام الطاولة التي كنت أجلس من خلفها وأخذت تضع الأشياء واحدة تلو الأخرى.

أعضاء حيوانات يابسة، سبع زيوت، تاتة وأوراق رمادية لا خدش فيها، شموع بمختلف الأحجام، قشور البيض، خيوط ملونة، دمية صلعاء، ربطات شعر تبدو آدمية، وعدة كتب بحجم صغير، وإناء به ماء صافٍ، وأخذت

بكل قطعة من تلك المجموعة لتضعها في إناء الماء وتحرّكها بشكل دائري، مردّدة بلسانها كلمات غير مفهومة، ثم تكلمت بصوت خشن هذه المرة:

ـ واش نوجدلك؟ كاين خمس ورق، كاين كتاب فيه روى ما يرومق، ما عندك زهر تقول تبعني يتبعك، طالب لهنا يجيك طالب للحبيب يجيك طالب لخلاص من المرض أنا نجيك، طالب للذرية تجيك، ورق وشموعه وعظام الموتى والضبوعة، يخلّو لحبيبة تابعة، ولرايك متبوعة، نجمة في ورق مطبوعة تخلّي كلمتك هي المسموعة، حاب تنحي العين حاب ترضي الزين، حاب ترجع لوين حاب ترجع لوين حاب ترجع لوين!

رددت عليها بخوف:

ـ أن أعود إلى موطني.

ورشتني بقطرات الماء وأمرتني بالانصراف في لحظات مرت ثوانيها مر الساعات.

وغادرت مسرعا يتملّك قلبي الخوف، وران على نفسي شعور غريب، وجاء على عقلي أنّ كلّ ذلك كذب وكلّ مَن يأتيها موهوم ويكذب على نفسه، ولكن ما بال تلك الحالات التي دخلت سقيمة وخرجت سالمة معافاة!

ـ لم أفهم من ذلك الأمر شيئا!

وجاء الغد وجاء بعجيب هذه القصة، ففي الصباح الباكر قدمت الدورية بمذكرة التفتيش، وتمّت محاصرة المنزل والقيام بحملة تفتيشية لجميع الأرجاء

وأُقْتِحمت غرفة الأعمال وأُخذت الصور وصودرت العيّنات ونُزعت الطاولة الكبيرة ليُكشَف شيء مهول!

جثة ابنة يمينة منكل بها وبرائحتها النتنة.

تضخم الحدث وتدخلت الشرطة العلمية والطب الشرعي وأظهرت النتائج أن بعض المكونات المحفوظة في القارورات الزجاجية ممزوجة بدم آدمي، والبودرات الغريبة عبارة عن عظام وأسنان بشرية مطحونة وتلك الكتابات مكتوبة بدم بشري ممزوج بالبيض.

تم اعتقال يمينة وأحيلت إلى السّجن الاحتياطي بانتظار المحاكمة.

كانت يمينة قد نفت كل التهم الموجهة إليها رغم صدور التقارير من المخابر العلمية، ولكن بعد أن أدركت أنّها ستُنهي باقي أيام حياتها في السجن بعد قتلها لابنتها إعترفت بكل أعمالها.

أخبرتني عن تلك الحالات التي شُفيت بأعجوبة وأنهم مجرد مساعدين لها لتأكيد ثقة الزائرين بها، وأنّ نَبش القبور عادة جديدة خاصة بها لإخفاء سحرها وسرقة عظام الموتى وطحنها واستخدامها في تعاويذها.

وتحدثت أيضا عن أصلها وأصل عائلتها فهي من الغرب اللوذي للبلاد توارثت العائلة الأعمال السحرية الشافية أبا عن جد، ومن عقائدهم إذا تزوجت امرأة لوذية بغير رجل لوذي تقتل زوجها مباشرة بعد أن تنجب منه المولود الأول، فهو على عاتقها تربيّه وتُورثه سحرها وأعمالها تجنُّبًا لأيّ تدخل زوجي، وهذا ما فعلته أُمُّ يمينة وحتى يمينة نفسها قد علّمت ابنتها.

ولكن لماذا قَتلتها؟

في الاعتقاد اللوذي يظنون أنهم أسمى منا، فالإنسان العادي تسيطر عليه أحاسيسه وشهوته، وهم منزّهون عن الوقوع في الحب فهو من علامات الضعف في اعتقادهم.

وابنة يمينة مال قلبها لجارها القديم عامر، وصارحت أمها خوفا منها فغضبت أمّها، وبدأت بالبحث فوجدت أنّ له عائلة، إذ لا مجال لإصلاح ذنب ابنتها، فاللوذية لا يجب أن تنجب من الرجل الذي وضع صلبه في امرأة أخرى، وزاد سخط يمينة لذلك وقرّرت أن تطبِّقَ قصاص العائلة وأن يموت هذا الحب وهذا الدّنس، بموت كليهما.

وحينها سألتها في دهشة عن سبب التنكيل بابنتها وتشويه جثتها ؟

ـ كنت أطبّق شريعتنا فالمرتد عن العائلة يُقتل ويُدَنّس وينُكّل ويصبح لقمة لأعمالنا السحريّة.

ـ وما بال عامر الذي تحوّل إلى شيخ في عدّة أيام.

ـ إنه أعتى سحر تعلّمناه وهو الفودو، حيث يأتي بدمية القش ويُعَلّقُ عليها صورة الضحية وتُقرأ عليها تعاويذ خاصة بالموت أو المرض ولا مجال لإيقافه.

ـ كل هذا أيّتها الدجّالة لأجل ماذا؟

تغوون ضعاف القلوب لتسرقوا منهم إيمانهم قبل جيوبهم.

ـ كل هذا وأنتم تبيعونهم الكذب وتلتمسون منهم بأن يصدّقوا سحركم؟

ـ أنا لا أبيعهم الكذب، بل أشفيهم بمساعدة الأرواح الخفيّة، فهم من يجلبون لي أسرار البيوت والنفوس، فبذلك يصبح المريض أمامي مكشوفا وعاريا من الأسرار، فيُعينني الجنُّ على قراءة الكلمات الشافية والحروف المباركة بشكل خاص على كلِّ قاصد فيشفى المريض، ويفكُّ كرب المهموم.

ـ وهل لك قدرة أن تجلبيهم إلى هذا المكان ويحرروك من الظلام الذي ستُلْقين فيه لبقِيّة حياتك.

عَقد لسانها الصمت وسكتت عن الكلام وهي تعلم أنّه لا مفر لها فهي وحيدة بلا معين، لن يعينها جنّها ولا تعاويذها.

إن أعمال السحر هذه تجعل من البيوت الهنيئة خرابا يملؤها صراخ الجنون، وتملأ رؤوس ضحاياها بأفكار تسير بهم إلى هاوية الضياع، وتتشل الحب من قلوب الأحباء فتجعل منهم حاملي حقد، فالسحر هو الظلام الذي يحاول أن يطمس جمال الخالق فيكون سلاحا لضعيفي الإيمان ليرسموا طلاسم عذاب الناس في الدنيا وعذابهم الأعظم في الآخرة.

الروهينـقا

أنتَ تحزنُ عندما تقرأ عن المأساة فما بالكَ أن تعيشها.

رأيتُ فِيما يرى النائم في إحدى ليالي الأسبوع الفارط أنه قد أصابني شيء لا يسعني أن أصفه، فحينما أقول إنّ تلك الصفات المادية من جسمي قد غاب عني تحسّسها من دبيب الأنامل ورمشات الجفون وطرب الأنفاس وحركات الأطراف، وإحساسي بثقلي الجسدي قد غاب، كأنّي خرجت بوعيي من لباس الجسد، فراغٌ أقرب إلى تبخر ذهني وتطايره، وركبني شعور الخفة والرواحة والحرية المطلقة بعيدا عن أصفاد ماديتي الجسدية، وكأنما روحي قد ركبت لباسا غير لباس الحواس.

وجعلني هذا الشعور العجيب أنسلّ من واقعي الحسي حتى أدركت أنّي ظل هائم أرى بغير عين، وأشمُّ من غير أنف، متحركا بغير جسد.

وانسجم وعيي مع الوضع الذي أنا فيه، وتدرّج الوضوح شيئا فشيئا في شكل شريط من الصور والأصوات والألوان التي تنبثق في اختلاف رهيب، أرض خضراء وسُهُبٌ غنّاء، وعمران مهيب وقصور فخمة ومدن وحصون تبثّ الدهشة، وقلاع جبارة وشعوب بمختلف الأعراق والألوان ومئات الوجوه يملأ الاختلاف تفاصيلها. ملوك وعبيد وصعاليك وشخصيات لا يكاد عقلي يعقل لها! معارك لا يحصى تعدادها وكم مِن صخب فيها من سيوف تنحر الأعناق إلى قنابل تدمر مدنا وبلدانا، الكثير من الصور تشبه شريطا تاريخيا يمر من أمامي، أحقاب زمنية تتأرجح من بداية التاريخ لطوفان نوح وعصر الأسرات من بابل إلى أثينا حتى رايات الروم المرفرفة وعمران الأندلس

العتيق إلى صافرات القاطرات البخارية بأوروبا، ولا زال الشريط يلفُّ أحداثه ناقلا ببصري من مكان إلى مكان، من أقصى العالم إلى أدناه، ومن رقعة إلى رقعة أطأ أحقاب العصور في برهة من الزمن، وبفجأة خاطفة اختفى الشريط الزمني من أمامي واختفت ألوان العصور وزالت ضجة الأصوات وساد الهدوء لبرهة حتى تراءى لي أني على أرض تختلط تضاريسها بألوانها الموحشة ورياح مزمجرة وهواء بارد يقطع الأوصال وينخر العظام، وفي فجأة من شخوصي لكياني تبدلت الصورة وتغيرت الألوان من أمامي حتى وجدت نفسي وسط غابة كثيفة أشجارها، وانتشرت أصوات صاخبة لحناجر يكاد يبح صوتها، وبكاء أطفال من خلف قضبان أقفاص ضيقة تمد بأيديها خارجاً تجاه نساء عاريات علقن على جذوع الأشجار بأصفاد مسننة، بدين لي كأنهن ميتات لولا صوت نواحهنّ الرقيق بأنفاسهن الضعيفة، ومجموعة من رجال كُبِّلت أيديهم بأقدامهم منحنية ظهورهم إلى الأرض، ودماء تملأ أرجاء المكان، خُيِّل لي كأني في درك من دركات الجحيم، وامتزجت الصرخات والتأوهات بضحكات من رجال غلاظ تتسابق سياطهم لتسلخ أجسام النساء والرجال فتأخذ من جلودهم ليشق الصراخ حناجرهم المرهقة ويليها صوت بكاء الأطفال.

وحلّت برهة من الصمت لتكسرها خطوات كتلة بشرية ذات قامة طويلة برداء تعرفتُ عليه من النظرة الأولى، عباءة تغطي نصف جسمه العلوي وسروال قصير فضفاض ورأس أصلع وقلادة برمز غريب، تقدم يُقلب وجوه النساء ويركل أجساد الرجال يصيح فيهم:

ـ أنتم أعداء هذه الأرض ونحن جنودها.

وألحقها بكلمات ضاحكا:

ـ عذابكم طربٌ لنا فلكم اليوم جحيم والغد جحيم، فالموت لجنسكم ولتمت معتقداتكم معكم.

ثم يتحوّل إلى قفص الأطفال ليضرب برجله فيعمَّ الصمت بالأرجاء ويمد يده ليسلمه أحد الجنود سيفا كان يلمع تحت قطرات المطر ليضرب مكشرا عن أنيابه أعناق الرجال ويمزق أجساد النساء المعلقة، ويقطع الرؤوس ويشق البطون، وهمّت أيادي الوحوش الآدمية بأيديها الغليظة تكبُّ صهاريج البنزين تبلل أجساد الأطفال الذين لم يجدوا إلا أن يرفعوا بأيديهم الضعيفة الضئيلة طالبين الرحمة، منهمرة دموعهم مبللة وجوههم المستكينة، ممرغة أجسادهم في برك من الدماء.

وانتشرت صرخات من نوع آخر ونظراتُ جزعٍ تملأ عيون الأطفال والنيران تلتهم أجسادهم النحيلة، وهوى الجنود على رُكبهم يرفعون أيديهم إلى السماء في شيء يشبه العبادة أو شيء يشبه تقديم قربان من البشر، في مشهد زاد من دهشتي، وما لي من شيء أردع به الجنود غير خيالي الهائم، خيال مكبّل من أن يحرك أي شيء أو يمنع أي يد مسلطة على هذه الأرواح، أو صوتٌ أصرخ به فيهم لعلّي أوقظ قلوبهم السوداء التي بدت لي أنها تصلّي لشيطانها لا لخالقها !

وفي لحظة من الزمن اختلطت الألوان والأصوات من أمامي واختفت جميع الصور وتغيّر شعوري من الساكن إلى المتحرك الهائم في الظلام، ولم يسعني أن أرى شيئا ، إلّا إحساسي كأنّي أحلّق بعيدا عن المكان.

واجتمعت الألوان مرّة أخرى وبدأ يتجلّى أمام ناظري النور الخافت المنبثق من بين السحب السوداء الغاشمة الممطرة بخيوط من ماء منهمر بغزارة على أرض طينية قليلة النبات والشجر تشقها الأودية الصغيرة بمائها الضحل تصب جميعها في واد كبير، اتضحت على جوانبه بيوتاً طينية متراصة فيما بينها، وتحرك كياني من غير إرادتي تجاهها وتدرّجت الألوان بوضوح وتراءت أمامي قرية بأزقتها الضيقة المتداخلة والطرق الطينية الملتوية وتلاعب الرياح بدخان المداخن المنبعث من معظم البيوت، وصوت ماء الوادي العظيم، حرك في عقلي أن أتأمل جمال المنظر وطابع القرية القديم، وانعزالها وهي ترمي أطرافها بعيدا عن أي شيء وأني على حالي ناظرٌ من بعيد، حتى أُخذ بكياني نزولا إلى زوايا القرية التي كانت طرقها ضيقة بما يكفي لتصبح بركا من الماء الضحل والطين اللزج وإني أطوف بها وببيوتها الخاوية المتهاوية أسقفها والخرب حالها، أرى الخراب من قريب غير الجمال الذي أبصرته من بعيد، وفي هزة لشخوصي أحسست أني أركب الزمن إلى الوراء، واختلطت الأصوات على مسامعي وتداخلت الألوان راسمة أشكالا لا نهائية، حتى حُطّ بي وسط باحة واسعة ممتدة شاسعة وفي وسطها رجال كالذين رأيتهم من البداية، صُلعٌ برداء نصف الجنب والسراويل القصيرة، كانوا منهمكين بشيء تحت أقدامهم ونبرات الضحك المتقطعة تملأ أفواههم، فتقدمت أستطلع فيما هم منهمكون.

كانت هناك أجساد بشريّة غارقة في الطين مدسوسة ببشاعة تدفع بها الأقدام لتمزجها بطين الأرض، ووجوه تُصَكُّ بالنّعال وتُدفع لتتمرغ مغلغلة بأنفاسها المختلطة بالطين الذي ملأ أفواهها واختلطت مظاهر الوكز واللكز، ودُفع بأجساد على الأجساد المغموسة في الطين وتلاطمت الأجسام فيما بينها وتلوّت الضلوع بين خفقات النعال ودُسّت الرؤوس البارزة ليُمنع النفس عنها، وصرخات رقيقة تشبه الهمسات تدفع بها الحناجر المخنوقة في الدعكة الطينية، وكل الأجساد تُدفع من غير رحمة لتغوص غارقتا في الطين.

انتشر صوت البكاء القاهر للذين ينتظرون دورهم وأصحاب نصف الثوب لا يكترثون لأمرهم ولا لما هم عليه من قتل للأنفس تحت أقدامهم.

ودبّ فيّا الذّعر من هول ما أرى، وتباطأت الصور الشنيعة في ذهني بين الأجساد المدسوسة والوجوه المعفوسة والضحكات المترنّم صوتها بعيدا في مسامعي وفي وجس من خشوعي قطعته صيحات من كل جنب فإذا بي وسط درك عظيم من الجحيم.

كان هناك شيخ يمسكه ثلاثة رجال غلاظ يرغمونه على أن يتجرد من جميع ثيابه وهو يتوسل إليهم، ليؤتى بوتد صليبي عملاق ويُمدّد عليه ويقيّد جسده فيه، ويقوم رابع ببسط ذراع الشيخ ويدق بمسمارين في راحتي يديه ليصيح الشيخ بصوت مقهور ودمع منهمر لكن لا ينفع صياحه أمام الجنود الذين رفعوا الصليب بشكل عمودي ودسوه في الأرض وتدلّى الشيخ معلّقًا إلى المسامير في شيء يشبه الموت البطيء، وكان هناك العديد من الأوتاد الصليبيَّة المعلّقة بها أجساد من رجال ونساء وحتى الأطفال.

وهناك نساء عاريات مكبّلات بالسلاسل عند أعناقهن يُغتصبن بوحشية لا يقبلها العقل، وكلَّ من خارت قواها تُرمى لأنياب الكلاب التي تمزق جلود وجوههن ببشاعة، وأخريات كُبّلت أيديهن إلى الأشجار وانهمك الجنود في تقطيع أثدائهن وسلخ جلودهنّ وهنَّ يصرخن صراخا تكاد حناجرهن تنفجر بسببه.

وهناك مجموعة كبيرة من الحشد كُبّلوا عند أعناقهم ورُبطوا بعضهم ببعض وأُخذو إلى حافة حفرة عميقة، دفع جندي بأوّلهم فسُحب بهم جميعا كالسلسلة وتهاووا جميعا، فمنهم من كُبّ على وجهه ومنهم من سقط على آخر فقتله ومنهم من قضى نحبه عندما اصطدم بالأرض وتصاعدت رؤوس من كُسرت ضلوعهم ينتحبون بآخر ما بقي من أنفاسهم وفي ذلك المشهد كانت الجرّافة ترمي التراب في الحفرة التي سيدفن فيها الحي والميت معا.

واختلطت عليّ صور التنكيل وسط صيحات المعذبين ونواحات المتأوهين وصرخات المساجين وبكاء الأطفال في أذنيّ كالرنين، وصور الأيادي البارزة للأحياء المدفونين وشيوخ من وراء أقفاص بأيديهم مُلحّين مترجّين راجين الرحمة لها طالبين من جنود غلاظ غير مبالين.

فوضى من الألوان وتداخل من الصور البشعة وأشكال خليعة من العذاب، كل هذا تمالكني دون أن أفهم من أمره شيئا أو أن أمسك عقلي عن هذا الهول الذي بدا لي أغرب من الخيال وأشدّ هولا من الموت وأبشع من البشاعة نفسها.

وقادني خيالي منسحبا شيئا فشيئا من ذلك الدّرك وبدأت أصواته وألوانه وأشكاله تختفي وملأت العتمة ناظري، وشيء مثل الضباب يتكاثف بتدرُّج يحجب كل شيء من حولي، أغمضت عينيّ لبرهة من الزمن ليتملّكني شعور رجوعي لسجيّتي الجسدية، وتماثلت هيأتي لطبيعتها وأنعشتني نداوة الهواء، كأنّما دبت فيّا الروح من جديد، وفتحت جفوني وسط سحب نورانية من كل جنب يتدفق نورها إلى ناظري، فحرك في شعوري ومخالجي شيئا من السكون، وبدا من أمام ناظري قلعة شاهقة بين السحاب غارقة أبراجها المستدقة ومنظرها المهيب، وأسرني جمالها وتعداد قبابها ونسق زخاريفها، كانت آية في الجمال، تأخذ العين فيأسرها التأمل وقد لمحت بابها المرصّع بالياقوت والمرجان يُفتح بمصراعيه ليخرج من خلاله رهط بأثواب بيضاء، يحمل كل واحد منهم صولجانا بلون ذهبي ينثرون منه شيئا من النور، ولازالوا ينثرون ويقتربون مني شيئا فشيئا حتى اتضحت لي طليعتهم، كانوا ذوي وجوه يملؤها الدمع والدم، وآخرون أكلت النّار أعينهم ومنهم من لا وجه له إلّا جمجمة مغروسة في الدم، وكانت ملامحهم المشوهة تسكب في قلبي شيئا من التعاطف، وغشيت أذناي أصواتهم المترددة "هلم هلم هلم"

وعلى وقع واحد رددوا وبصوت فيه شيء من القهر:

نحن مساكين الأرض ومشردوها وذوي البطون الخاوية والأجساد النحيلة والعظام البارزة، نحن أحلامنا بأن تشبع بطوننا وتقضم أسناننا رغيف خبز، نحن من اعتدى علينا أعداء الله وكنّا تحت أقدام بطشهم ففرغ صبرنا ومات أهلنا، نحن من عرف الأسر قبل الحرية، والموت قبل الحياة، والظلم

والاضطهاد قبل العدل والمساواة، نحن من عرفنا الغربة في أوطاننا وعانينا الخوف وسط أهلنا، نحن الأرتا واللانتا والرينغا نحن قوم الروهينغا.

كانت تلك آخر كلماتهم، ثم اختفت صورهم من أمامي وتلاشى النور ليخيّم ظلام دامس، وشطح بيا الخيال بعيدا، وتغيّر وعيي من الحلم إلى صحوتي على صوت عازف بائع القماش كعادته يطوف أحياء البصة بشارطته كل صباح.

واعلم أيها القارئ أني في هذه الأوراق، قد نقلت ما رأيت ووفّيت بتفاصيل الأحداث وكفيت وما زدت عليه أو أنقصت منه شيئا...

جرعةٌ زائدة

حديثي اليوم سيكون حديثًا عن أولئك الذين تعجُّ بهم الأحياء والأزقَّة في يومنا هذا... الذين أخذوا من نصيب الدّنيا إدمانًا لخراب أنفسهم، أصحاب اللفّة في خفّة، والنّشوة في طرفة، وجغمة الكأس، وجرعة اليأس، وليرحل البأس، أولئك الذين يشعرون حقا أنّهم ضائعون لكنّهم يواصلون حياتهم.

ـ أنا منهم !

وأنتَ اليوم ضيفي ورفيقي في حفلتي التي وددت أن أشاركَ بها وبقطع من روتين حياتي.

وإنّ هذه الحفلات لا يعرفها إلّا المدمنين أصحاب الدرجة الرفيعة فاشكر حظك أني اخترتك وفتحت بابي لك.

في غرفتي وتحت ضوء الليد الذي يجعل الجوّ غير عاديّ بالنسبة إليّ، يبدو أكثر إطراءً، فهو يثير حماستي، ويفتح شهيتّي من البداية، ومع وصل موسيقى digital drugs يترنّم لحنها بوقعها الهادئ في عقلي، لأجلس منبسطا على أريكتي وتقابلني الطاولة الموضوع عليها جميع الأنواع التي سأتجرّعها اليوم.

بدايةً رفعت قارورة الفينتانيل الصغيرة بغلافها الأزرق، وغطائها الذهبي الناصع، كان السّائل بداخلها كمثل الجرعة الثمينة التي يشتاق إليها جسدي المنهك، أسحب بالحقنة كلَّ ما فيها وأحقن بها إحدى شرايين ذراعي الأيسر، كان مفعولها يسري مسرى الدم، فأشعر به وهو يشق طريقه في كل الجسد فتزداد نبضات قلبي، وأحسّ بعقلي قد أدركته النشوة لتوّه، إنه يرتجّ ويترنّح

في غيمة من اختلاط الأحاسيس، فأغمض عيني لينطفئ كلّ شيء، ويختفي كل شيء من حولي، فلا ضجيج ولا صخب ولا أفكار تنخر فقط بعض الهدوء، ذاك الشعور الذي يجعلك تحسّ أنّك ابتعدت عن هذا العالم وانفصلت عن أحزانه وأضغانه وسقم الجسم وآلامه، كل شيء يبدو هادئا في مرمى الخيال، عالم آخر ووعي مختلف، أفكار عجيبة تتدفق إلى مخيلتي وأحسُّ بنفسي في مكان مختلف، شعور بالخفة والراحة، وحواسي تلتقط تأثيرات غريبة، بعيدا في أفق النشوة لا نزوة ولا ألم، أريد أن أضحك، أن أقفز، أن أفعل ما أشاء، فمنذ أن سرى الفينتانيل في جسدي كلّ شيء من حولي قد تغير كأنّ العالم قد سكت لأجلي.

كنت آمل أن تختفي كلّ الضوضاء إلى الأبد وينتهي الضجيج من حولي وينقطع دون رجعة ويرتاح وهنُ جسدي وأكون مرتاحا أكثر من هذه البرهة فعند انتهاء مفعول الفينتانيل الذي منحني قليلا من طعم الحريّة خارج هذه الأقفاص، أقفاصٌ دون قضبان أراها، لو كان بإمكاني رؤيتها لدفعتها بجسدي الواهي فتنحلُّ وتنتهي مأساتي.

دائما ما أحاول أن أجعل الفرق في وقت التعاطي طويلا لتمتلئ رئتاي بهواء الحاجة أكثر فأكثر وأستشعر تلك الرجفة من جسدي كلّما طال انقطاعي عن أيّ كمية من الحشيش أو الحبوب، أمّا الآن فلم أجد بديلا لسبب سعادتي أفضل من الإكستازي حبوب السعادة، أسمّيها حبوب الحرية التي تحررني من كآبتي البكماء ووهني الشديد.

كانت عملية الحصول على الإكستازي شاقة نوعا ما بعد أن أغلق القانون أبواب الصيادلة، فأصبح من الصّعب أن تجد وسيطا يكفيك حاجتك لها، لكن يبدو عناء الوصول إليها تافها مقارنة بمفعولها... نعم إنّها تستحقّ العناء.

وبعد وقتٍ قصير من جغمها تبدأ الرحلة دون أن أبرح مكاني وبدون أن أنبش بحركةٍ حتى، فمفعولها كافٍ بأن يجعلني أنتقلُ بشكل آني من اختلاط في المشاعر إلى شعور حاد بعاطفة دافئة كأنّي أعود بشعوري هذا إلى ذكريات حبّ المراهقة، فالكثير من السعادة وغامر الدفء العاطفي يملأ صدري، هذا الشعور يجعلني أمتلئ رضًا عن نفسي وعن ذاتي بالذات، أنا أكثر ثقة في أيّ شيء في نفسي، إنّه شعور رائع ليس بإمكاني أن أربطه بشيء من الواقعية التي أنت فيها، فلا شيء يقاس بها أبدا، لم أستطع أن أمسك بحركات جسمي وهي تتراقص وتهتز مع وقع الموسيقى، ويدوم الحفل في داخلي ومع نفسي مبتهجا لدقائق طويلة حتى ينكمش المفعول بانتهاء الكمية، لكن لست بحاجة لجرعة أخرى فالكثير من الأيام في الإنتظار، بدأ يزول مفعول دفئها في جسمي ويتلاشى بشعور رائع يشبه حماس انتظارك لفلم السينما.

ـ أريد أن أسألك

ـ هل سمعت عن "الأستروكس" ؟

إنه من أفتك الأنواع التي ظهرت حديثا، ويعتبره غالب المدمنين المحترفين أفضل بديلٍ لمفعول القنب الذي لا يدوم كثيراً، وبفضل المواد التي تحتويه أصبح أكثر فتكا من الماريخوانا والبانقو والحشيش، كان الحصول عليه صعبا

في السنين الأخيرة ولكن بفضل نجاعة التهريب وانتشار المخابر التي تقوم بتحويل المعطرات العشبية بصورتها السائلة الممزوجة بالأستروكس، ويتم تحويلها فيما بعد إلى بودرة لتصبح جاهزة، وبثمنها البخس تمكّنت من اقتناء كمية تكفيني حدّ الأسبوع كله.

أظنّ أن مفعول الإكستازي مزال ساريا، فهي تجعلني أكثر ثرثرة على غير عادتي، لابأس.

أصبحت أفضِّل رشّ الأستروكس في النرجيلة على حساب التبغ الذي يعتبر تقليدا أعمى لهواة الإدمان، فدسّها في النرجيلة تحت عدّة جمرات ملتهبة يجعلها أكثر فتكا من لفافة الكفن -سيجارة-، وبمجرّد تجاوز البغوات الأولى يبدأ مفعولها في رأسي كأنَّ الدخان يتسلل في داخله ويجعلني كراكب الأرجوحة، أستشعر الدهشة بإفراط، وألتقط أنفاسا أخرى لعلّي أدفع بأرجوحة دماغي أبعد من الأوّل، أصبحت أستشعر جريان الدم في الأوردة لتتشكل غيمة من اللاوعي، وغواشي الحس تخسر أكثر فأكثر ويختلجني اليقين أنّي وحدي، أحاول الصراخ فيلتقط سمعي حشرجة صوت بعيد يبدو أني أعرفه!

إنّه صوتي يبدو قادما من بعيد، كأنّ الروح تريد أن تخلع من جسدي وفجأة ترتخي عضلاتي فأشعر برعشة شديدة في جميع أنحاء جسمي وتتسع حدقتا عيناي لتلتقط ألوانا لم أرها من قبل، ثم كأنّي في مدخل نفق غيبوبة فأقطعها ببغوة أخرى ليرتعش جسدي بشدّة أكبر من الرعشة الأولى. يستمرّ هذا مع

شعور كأنّي أهوي من منحدر بسرعة هائلة لتزداد دقات قلبي وتنتشر ضحكاتي وسط الغرفة.

قد أبدو لك مجنونا من كلّ هذا، لكن أنتَ في موقف قارئ لا تستطيع أن تقضم بوعيك ربع ما بلغته من متعة الإحساس الرهيب واقتلاع عميق من قطب النشوة، ولأعطيكَ صورة من جهة تفكير أقرب "إنّه أشبه بأن تركب تابوت الموت وأنت معلّق بغصن الحياة " أن تشعر باجتماع العالمين، كلّ هذا فقط ببضع بغواة من مخدّر الشيطان.

أُفضّل أن أختم كلّ هذا باللون الأحمر للشمبانيا المتلألئة تحت أنوار الليد، فخشرجة الكأس الأولى في الأمعاء تفتح شهيتي لاحتساء المزيد من الكؤوس، فإنّي أحتاج لشيء يجعل كل شيء هادئا، أحتاج لشيء يطفئ النار التي أشعلتها ويخمدها لأسترخي قليلا، فذروة النشوة قد بلغت حدها فالشامبانيا هي الماء الذي يخمد نارها.

هنا يصبح كل شيء هادئا، تنحصر الأفكار حتى تكاد تنعدم، لا تعطّش لمزيد من الجرعات، ولا رغبة في بلوغ النشوة، لقد زالت كل الألوان التي رسمتها "الإكستازي" وتلك البهجة المصطنعة من "الفينتانيل" وتهدم الخيال الذي شيّده "الإيستروكس".

انتهيت من الجرعات الثلاثة لهذه الليلة وانتهت الحفلة ببضع كؤوس من الشامبانيا، فيسحب الاسترخاء بجسدي لأترنح غارقا في الطمأنينة تارة وألتقط

قبسا من رعشة ضئيلة تنتشر كالشذى في أعماقي، يبدو الشعور ناعما منعشا لروحي وبدأ وعيي يلتقط خيوط النعاس لأغط في غبط نوم طويل.

منذ أن بدأت بحفلات الإدمان التي كانت تسير في منحى رائع ففي كلّ يوم من نهاية كل أسبوع أتلهف ناهما لاقتناء المخدرات واختيار نوع الجرعات وأنواعها وأساليب استهلاكها.

كانت الأيّام الأولى رائعة فلم يتوقف دبيب نهمي متعطشا لاستهلاك أكبر عدد من الأنواع، فعرفت في فترتي هذه الكثير من المروّجين وعرفت من خلالها طريقة عملهم في التهريب وتسيير وحداتهم المصغرة في كل حي وفي كل زاوية، كنت أشبّهه بخلية عصابة إيطالية محترفة، كانت نسيجا دقيقا لشبكة تعمل في الخفاء لتلبّي حاجيات بسيطة لطالبي النشوة، وفي وسط هذه الجلبة تدور أعداد لا تكاد تحصى وتصنّف من حبوب وحشيش وبودرة وجرعات مركّزة ومهلوسات الجنون بنكهات مختلفة وقوة تأثير متفاوتة وألوف الأصناف الحديثة الواردة إلى السّوق باختلاف ألوانها وأشكالها ومفعولها، فشراهة الإدمان لن تجد لها حدا نهائيا يرضي غليلها.

وأصبح التعاطي بالنسبة لي حياة أعيشها ونفَسًا يجعل الحياة تدُبّ في داخلي، لا بديل يهدم مواظبتي الشرهة في اعتلاء حدود النشوة، فليس هناك شيء غير المخدّر يجعلك تبلغ ذروات القدرات الحسية للجسد، فهي من تفك شيفراتها وتكسر أقفالها.

نعم كلّ شيء كان رائعا، أشبه بعيش الخيال وسط كومة الواقع المظلمة

قبل أن أقف في هذا اليوم أمام مرآة خزانتي في منظر إعتدت عليه في الأيّام الأخيرة، أبصرت شخصا غير شخصي أنا، فلقد تهاوت جفوني على عيني فأخفت اتساعهما لأبدو كشيخ مسن، وتطفلت تلك التجاعيد مشوهة منظر وجهي الذي أصبح قبيحا كأنه مَسخ، وأعين ذابلة وأسنان سوداء أكلها التسوّس، ورائحة القنّب تفوح منها، وتقاربت المسافة بين منكبي وأصبحت نحيلا بصورة تقهر ذاتي، وفي منظر أُشفق فيه على جسدي الذي برزت منه العظام وأكل منه التخدير ما أكل ونبش بكلّ طرف منه حتى جعلني قعيدا لا أقدر على الحراك إلّا بصعوبة، وتداعت كل أجزاء جسدي تئنّ ألما يشق ضلوعي ويخرز مفاصلي يكاد يقطعها، أعيش بجسدٍ يذوق قطعا من عذاب جحيم الدنيا، فبعد أن غرّني اللون الأحمر على الشفاه الذي تتركه الشمبانيا من بعد كل جلسة شراب وهمهمات السُّكْر التي تجتاحُ عقلي في صمت اللاّوعي، كان الثمن من كلّ هذا الغبط، اللحظي وهنٌ جسدي وقصور عقلي رهيب، فأصبحت بفضله سقيمَ جسد، عليلَ عقل، ولم تنته نزواتي من كلّ هذا، فكلّ أنواع الحبوب والمهلوسات وأصناف البودرات وأعداد الحقن والحشيش بكلّ أنواعها وألوانها، جعلوني أعاني من ضعفٍ في قدراتي الجسدية وإجهادها ونقص حافزها وانهيارها، إنّي كالجثة التي لم يبق لها إلّا بضع من أنفاس الحياة، أتقلّبُ في أكفان الألم، فلم تعد الجرعات ذات نفع بمفعولها الذي أصبح لا يطول كثيرا، وما هي إلّا لحظات من مفعول أي جرعة أو حقنة ويعود كابوس طلب المزيد ينخر جسدي، لا جدوى فكل جرعة زائدة

يقابلها صداع رأسٍ ونار ألمٍ في كلّ الجسد. أصبحت أيامي سوداء أستنجد النور فيها دون جدوى.

.....

ليس هذا الضحيّة الأولى التي تسمع بمأساتها، فإنّي لا أكاد أذكر شيئا عن الأعداد الهائلة التي حصدتها بمنجلي هذا، أولئك الذين تراهم أو تعرفهم من مدمني مختلف المخدرات أولئك عبيدي أنا غايتهم.

أنا الذي يبحث عنّي المنهار في لفة قنب والمهزوم في حقنة الكوكايين وحبيس اليأس في نشوة الإكستازي، أنا الذي أعيشُ من خلف ستار إتلاف مالٍ وخراب أسرٍ وفسادَ مجتمع، أنا الذي أهدِّم بيوت العز بوخزة الحاجة إليّ، تجتاح هيمنتي الأزقّة الضيّقة فتُشق البطون وتُقتل الأنفس لبلوغي، أنا من أجعل من بصرهم يرون أن طريق السجون ناعم سالك، لا ظلّ لي في دخاني لكنّي أغشيتهم به ولا حلاوة في كأسي فأسكرتهم وأذهبت عنهم عقولهم، أنا المتربّع على عرشٍ سلَكَه المراهق في زمنه، فحين يبغيني أكون أنا عبدَه لوهلة، لكن بباقي الأيام أدوسه وأشد على عنقه فيضيق صدره فيصيح يطلبني ويناجيني ويبجّلني، وأصير أنا رفيقه، أنا خليله ولا شيء يعلو عليّ مكانة في حياته، أنا الإدمان فهل لك أن تدق بابي.

اسألوا كل التائهين الذين لم يجدوا أي سبيلٍ للخلاص من أكفانهم التي تزحَف بهم دون توقّف إلى الهاوية، عن جحيم النّدم الذي يقتات من أفكارهم وعقولهم يكاد يجعل منهم مجانين لا وعي لهم، واسألوهم عن أنفسهم الخربة

التوّاقة لعناق قسطٍ من الطمأنينة وهي تتخبط غدوًا ورواحا بين دمار داخلي وشتات يسلخ أكبادهم وأبدانهم لا حيلة لهم في صدِّ كلّ هذا إلاّ تلك الجرعة الزّائدة من الإدمان.

حِوارٌ تافِه

كان السعيد أحد سكان حيّنا القديم بالبصة، متقاعد جيش منذ عدة سنوات، رجل عُرِف بالصَّرامة ويحبُّ أن يبدو بصورة الكمالِ بإفراط، وإذا أبصرته عيناك سيبدو لكَ كهلا مرتاح البال صافي الذهن معتدل المزاج، ولكن إذا حضر لك مجلس معه في مقهى الشيخ بوزيد ستراه يستحيل غير شخصه الأول بتعصبه وشمائته وصوته المرتفع وهو يخوض حواراته المعتادة عن الماركسية وتأييده للفكر الشيوعي الاشتراكي، وتمجيده بإفراط لروسيا، وحديثه الذي يشبه التبجيل لمثل ريتشارد سورج، وكارل ماركس، وكعادته يضيف اقتباسات عبقة من كتّابات تولستوي وألكسندر دوڤن، فتارة يحاجج الناس رأيهم في الروس وتارةً تجده يفرض موضوع الحديث في الجماعة عن الفلكلور الروسي وثقافته، وما عرفه الناس بتأكيده لأفكاره كما عرفوه لتعصُّبه الشديد ضدَّ من يخالفه الرأي.

وحضر لي صُدفةً في إحدى الأيام حضورَ جَمعِه وتسلَّلَ سمعي للحديث بينهم وكانت تلك الأيامُ أيامَ الغزو الروسي للأوكران، وغلب كلامهم بالتأييد للاجتياح بحجة العلاقة الوطيدة بين بلدنا وروسيا وهم على ذلك حتى قطع هدوء الحوار صوت الشيخ بوزيد وهو يجمع الأكواب من الطاولات:

ـ ما يهدد روسيا هو جشعها وليس الناتو، وإن كان لها أن تسقط فهي من ستصنع العثرة لنفسها، كما حدث سابقا وإن سقطت بدون حرب في التسعينيات.

وعمَّ الصمتُ في المقهى للحظاتٍ وتوجَهت النظرات إلى السعيد الذي غمغم في ارتياح عميق وأسى خفيف:

أنتم من تحفظون خمس كلمات ضدَّ روسيا وتردّدونها منذ أن عرفتكم، وروسيا اليوم تحمي مصالحها وكلُّ خطوة تقوم بها لصالحها ونحن مجرَّد أعين تترقب الأحداث وما ينفع تأييدي أو مقتك لها من شيء.

وردَّ الشيخ بوزيد بصوت ساخر:

- التي تتطاول على أوروبا بأنفها اليوم كانت في الأمس ترجو قروضها.

هنا تغيرت ملامح السعيد وأدار ببصره نحو الشيخ بوزيد، بصوت مرتفع قليلا:

- ما خان روسيا منهجها أو فكرها، بل عدوّها الغربي الذي حرَّض الشعوب على الانقسام وتشتيت وحدتها وبذلك تشكلت إعاقة كبيرة للتجديد الإشتراكي، فغرقت روسيا في الواقع المعدل من الرأسمالية وأفلتت خيط التعايش وتراجعت سيادتها الحدودية وسبق غورباتشوف أوان السقوط بخطابه أنّ الاشتراكية ولّت وروسيا غرقت في الديون.

وقاطع الشيخ بوزيد السعيد بعبارة ساخرة:

ـ خارت قوى روسيا حتى استعطفت الدول عليها فهي النكتة في كتاب الحرب العالمية الثانية.

وانطلقت قهقهات وضحكات في المجمع فالكلُّ كان ينتظر بشغف أن تقصف جبهة السعيد، الذي علت على وجهه ابتسامة ساخرة وردَّ بصوتٍ متعصِّب:

ـ نتفقُ أنّ روسيا سقطت بدون طلقة نار، ولكن عرفت كيف تسترجعُ هيبتها، فالقنابلُ الذريَّةُ التي كانت تحوزها هي من أجبرت أوروبا على إعانتها، وما فتحت أوروبا خزائنها إلَّا لمصلحة أمنها وتوسيع أسواقها.

وتحدَّث أحد من المجمع مخاطبا السعيد:

ـ لكن هنا لا نرى أي هيبة للروس بغير تواكب المصالح بين الطرفين.

ولما عرف السعيد أن حديث المجمع يقوده للاستسلام أومأ بحركة الغير مبالي وتمتم باقتباس مشهور لجورجي جوكوف "هناك أشياء في روسيا ليست كما تبدو"

ثم ردد قائلا:

- لعلَّ ذمّكم للروس هو مدحكم لأمريكا، أم أنكم نسيتم افتعال بوش لحرب إيران والخليج وإسقاط العراق واستنزافِ ثرواتها، وفتح الطريق لإسرائيل لتبدأ مشروعها دون أن يقلقها أحد ففازت أمريكا بغنيمة وهربت بجريمة.

لو وظفتم شفقتكم ودموعكم لإخوانكم المسلمين المستضعفين في غزّة تحت بطش البنت المدللة لأمريكا، عوض مقتكم لروسيا البعيدة عن ظلم المسلمين، فما وقفت دولة ضدَّ أمريكا كمثل روسيا.

وردَّ عليهِ أحد الشباب:

- كلامكَ منطقي في حديثكَ عن الخططِ الأمريكية، لكن كلّهم صُنَّاع دمار فما لنا أن نؤيّدَ أحدا منهم، وصراعهم يخدم مصالحهم، وروسيا أيضا أقامت الحرب على المسلمين الأفغان الذين أذاقوها شرَّ هزيمة.

ورد السعيد على هذا الأخير بثقة بادية في كلامه:

- حديثك عن الأصوليين الذين تغلبوا على روسيا ولم يتغلبوا على هوى أنفسهم، فصراعهم على السلطة قائم إلى يومنا هذا وكل طائفة منهم تزكي نفسها أنّ لها الحق في الحكم، والحقيقة أن الطوائف هناك معظمها ضالة عن الدين الحق وهم وصوليون لا أصوليون.

- وإني أشكر الذين أزاحو أشباههم عن الحكم في بلدنا أيام التسعينيات، فلولا ذلك لكانت بلادنا بقعةً للصّراعات بعيدا عن تلك الشكليات الدينية المبطنة بالتعصب.

لمّا كان السعيدُ يخوضُ في حديثه تشكّلت نظراتٌ مألوفةٌ في المجمع كأنّها تنطقُ لتقول لا مجالَ بأن نخوضَ في الحديثِ الديني فيختلطُ علينا حديثُ الألسنِ بين الحرامِ والحلال.

وتغيَّر محور الحديث بعيدا عن روسيا عندما داخل أحد الشيوخ سائلا :

- وما رأيكم في الضعف الذي خنق حنجرة الأمّةِ العربية وهل هو تآمر عليها على حجة دينها الإسلامي؟

ردّ السعيدُ بنبرةِ استهزاءٍ وهو يشيرُ بيده إلى التلفازِ الذي كان يبثُّ صورا عن العتاد الروسي المجتاح للأوكران "إنَّ من مثل هؤلاء المسلّحين حتى الأسنان،

والمدججين بتكنولوجيا رهيبة، والمهيمنين على اقتصادِ العالم يخططون لسقوطنا .. شيءٌ مضحك "

وقهقهَ بصوتٍ عالٍ وأتمّ حديثه:

- نحن على الشاطئ الخاطئ للحضارة، نحن ذلك الجنوب المتخلف، نحن الدابة التي تحرث بها مخططاتهم التي زرعوها بأن نبقى في الحضيض، ولطالما كنا تحت رحمة استعمارهم، وخرجوا ليخلفوا من ورائهم جحافل من الغزو الثقافي والتخلف والرجعية الفكرية وورّثوا حكاما علينا عملاء لهم لا يقدر على مسهم إلا الموت، حكام قادرون بفعلهم فقط على حساب شعوبهم الضعيفة المغلوبة قبل أن تولد.

- ولقد قُضي على العروبةِ بأيدي العرب، وأصبح الواقعُ يشهد على حكومات شراذيم متنافرة متباغضة مقسَّمةٍ إلى أطراف تلعن بعضها البعض وتنام في سبات التخلف والفقر والخراب الفكري والتبعية العمياء وشعوب لا شخصية لها.

وأردف الشيخ بوزيد متبعا لكلام السعيد في حادثة غريبة بأن يتحدث الاثنان بصيغة الواحد:

- غُلب العرب لمَّا ضُربوا في دينهم، لمّا أوهمونا أن ديننا نكسة كنكسة عصر أوروبا المظلمة، وأنّهُ علينا أن نعانق العلمانية لكي نتخلص من الرجعية الدينية، فالذي يصيحُ اليوم بالعلمانية هو جاليليو هذا العصر الذي لا يجبُ أن يخالَفَ في رأيه.

وفي المجمع علت الوجوه نظراتٌ مختلفة تماما عمّا أَلِفناه فالكلُّ يستمع بنهم لحديثٍ يؤيّدهم فيه السعيد لأول مرة.

وتابع السعيد حديثه مشيرا بسبابته إلى صدره:

- ضعفنا وسذاجتنا هي من جعلتهم يتآمرون علينا، وهم يتسابقون لمصالحهم دون عاطفة وعين الشّك تبصر خبث النيّة، بأن نكون نحن الدابّة معصوبة الأعين وهم راكبوها.

وهم يخططون ويحسبون لكلّ شيء إلّا لرحمة الله التي ندعوا أن يرحمنا الله بها من شرّ الكائدين.

وحلّ بعد هذا الحديث صمتٌ مفاجئ كأنّما جاء ليختم الحديث، مع نظرات توحي بذلك.

وقام معظم من في المجمع مغادرا، ومنهم السعيد الذي غادر في هدوءٍ تام ليس كباقي الأيام التي كان يغادرها وهو يلعنُ أفكار كُلِّ من في المجمع.

مَجنونُ البصة

توسّط قرص الشمس قِمّة السماء الصافية، وقلّت الحركة بالمدينة وتضاءل المارّة على الأرصفة وهبّت ريح الجنوب تلفح بشفطها، وعمّ شيء كالهدوء يمسك على المدينة نفس حركتها الطويل الذي لا يكاد ينتهي.

وكسر الهدوء ظل هائم تراءى لجميع الأعينِ المترقبّة وهو يدخلُ مشارف الحي حتى دنت به الخطوات واتّضحَ للأبصارِ أنّه شيخٌ هرم منحني القوام، لم يقدر أن يوازن بين حركة عكّازته ورعشة يده وهو يطرق بها الأرض ويتبعها بخطواته المتثاقلة، يدورُ ببصره يتأمّلُ باهتمام في جميع الزّوايا وعند عدّة خطوات يقف يتأمّل في كل شيء من حوله، كأنّه يبحثُ عن شيء أضاعه، وأخذ يتمايل بين المحلّات ويحوم أمام فترينة الخبز يلقف ببصره خلف الزّجاج كأنّه يشتهي رغيفا يكسر جوعه، ليخيّل للنّاظر إليه أنّه هائم لأجل اللّقمة، لكنّه سرعان ما يتراجع بهدوء للوراء ليعود ويطرق عكّازته ويحرّك خطواته بعيدا عن المخبزة، ليتوقّف مرّة أخرى أمام محلِّ الألبسة الفارهة، يتأمّل سراويل الجينز وسترات الجلد، والقبّعات الإيطالية الأنيقة، كأنّه يبغي أن يستبدل سترته بلباس أنيق، وهو بحاله عند كلّ محل يتمايل عليه كأنّه يبغي منه شيئا لكنّه سرعان ما ينصرف كأنّ لا رغبة له في أي شيء، وبنفس الحركات أخذ يرمق الناس بنظراته، يقلّب الوجوه من حوله يتأمّل في كلّ من يمر من أمامه، كأنّه يبحث عن وجه مألوف، وتحرّكت أبصار الباعة والمارين والجالسين على مشارفِ المقاهي، ترقُّبُ الشيخ الهرم يتوسّط الباحة، رافعا ذراعيه إلى السماء كالدّاعي إلى الله، ثم أخذ يحوم ببصره يدور لكلّ

الزوايا يتأمّل العمران والنّاسُ من حوله. نظراتٌ أوحت للناس أنّه مجنون من مجانين البصة.

كان المشهدُ أمام أعينِ الناس يوحي لمجنون يمارسُ طقوس اللّاعقلانية، لكن في حقيقة الأمر أنّ الرجلَ الهرمَ لم يكن متسوّلا أو مجنونا، أو حتى غريبَ دار!

ولم يكن تمايلُه على المحّلات لغرض التأمّل.

ولم تكن حركاته وسط الباحة من فرطِ اللاّإرادية فيه.

كان شاردا يتأمّل بدهشة تائها في مزيج أفكاره وما تجمعه نظراته، كان ينظر لما حوله بعجب أيّ عالمٍ هذا!

ما كلُّ هذه المباني التي لم تترك شبرًا من فراغ، عمرانٌ يملأُ كلَّ الزوايا ومحّلاتٌ لا يكادُ يحصيها لكثرتها، وفيلّات فارهة أخذت مكان البيوت العتيقة القديمة، طرقٌ وممّرات جديدة والكثير من الوجوه الجديدة من الشّباب والشيوخ التي لم يستطع أن يتعرَّف على ملامح أي أحد منها، كأنّه في حي غير حيّه، تغيّر كل شيء، نصفُ قرنٍ من الزمن كان كافيا للقضاء على تلك الصّورة التي بقيت في ذهنه وهو يمدُّ بخطاه الأخيرة قاصدا الغربة، كان يظنُّ أنه سيجد شيئا ممّا تركه منذ خمسين سنة وأن يعرفه الناس ويتعرّف إليهم. يتحّدث إلى نفسه:

_ أهذه البصة ؟

ـ أين هم دراويش البصّة، وأين دكاكين التوابل برائحتها العبِقة، وأين مجالسُ«الدومين» التي كانت صيحاتها تملأُ الباحة، وصِبيَة تلميع الأحذية الذين لم يعد لهم أثر، أين تلك الصورةُ القديمةُ للبيوتِ العتيقةِ بشرفاتها المتدليّة إلى الخارج، وتلك الدروب الضيّقة للحي العتيق التي كان يتسابق فيها الصغار.

هذا ما عاشه في البصة وما ألفه، وأيُّ ألُفة التي قطعها طموحه لطلب العلم فغادر شابًّا لدار الغربة، يتتبع خطى طموحه حتى أتت عليه السنين وأوجفَ كبر السنّ عليه ولانَ قلبه على رغبة إتمام ما تبقى من أيام حياته في منبته الأصلي، حتى جاء اليوم الموعود الذي أذهب لينة قلبه فيبّسها فأصبح ضالًّا يطرق بخطواته أزقّة الحي كشخصٍ مجهول لم يتعرَّف على أيّ واحد من الوجوه الجديدةِ، ولم يجمع من الأبصار ما يوحي بأنّهم قد يعرفونه، كأنّه لم يكن يوما من أبنائها، وبمشهد صنعه خياله يرى نفسه يركض في أزقة الحي أيام طفولته، بهيجا بجميع الصور التي فرشتها ذاكرته أمامه ثُمَّ عاد للواقع بخطواته يترجّلُ منكسرَ الخاطر في هول من الأفكار اللامتناهية حتى جاء على مسامعه صوت يخاطبه:

ـ آه يا مسعود أراك كالغريب في ديارك.

انقطع تيهه والتفت في عجلة، إنّها حليمة اللبانة قد عرف محلها المتهاوي الذي لم يغيّر فيه الزمن كثيرا من معالمه، وبصمة النار التي التهمت عينها اليسرى وهرع إليها فرحا وخاطبها في حيرة:

ـ أ هذه البصة يا حليمة؟

ـ البصة يا مسعود ما دام الشرُّ فيها لا ينتهي.

تحرّك واجلا تجاهها وجلس مجاورا لها يسائل كلّ منهم الآخر.

وسألها عن الناس فيها والأجيال الجديدة كيف هي الحياة ؟

ـ آه يا مسعود لو بقيت بضع سنين منذ مغادرتك لرأيت البصة وهي تنزع أوراقها، فخريف الغربة ساق الكثير كما ساقكَ أنت وفرَغ الحي من معظم الشباب، حتى جاء زمنٌ استوطنَ فيها الغريبُ الحارةَ، وجاءت معالم أذهبت بريق الماضي الذي ألفناه وأصبحت البصة غير البصة، واليوم غير الأمس، ولستَ أنتَ الوحيدُ الذي زارني في حيرةٍ من أمره فهناك من غادرها وعاش غريبا بعيدا ليعودَ ويجد نفسهُ غريبا مرة أخرى.

تحرّك مسعود مبتعدا عن اللبانة تاركا حليمة تتمتم، وذهنه على كلماتها الأخيرة التي حرّكته للإدراك للحظات حتى حطّ به الذهول إلى الجنون، فذهبت بعقله مرَّة واحدة، وأصبح ظنُّ الناسِ به حقيقة !

مجنون البصة.

آيَةُ الزَّمان

لا شيء إلاّ الظلام، يسترقُ منه ضوءٌ خافتٌ منسدلٌ على منضدةٍ خشبيةٍ قديمة، ومجموعةٌ كبيرةٌ من الكتبِ المبعثرةِ، ملقيًا بجبيني على إحدى جوانبها أحاولُ جمع شتات أفكاري وإقامةَ الهدوء في عقلي وإسكاتَ أبواق أفكاري المترامية.

لقد قررت اليوم أن أستدير بشخصي إلى ذلك الجانب الذي طالما كان صفحة منسيَّةً في ملفّ نفسي، أستدير إلى واجهة مواجهة الواقع وأقابلكم أنتم بلغة الكتابة بحرفي هذا، وأجول بخواطري وبحبر الكلمات لعلّي أكون قد كفيت نفسي عن هذه الرغبة لترقد الروح مجاورة للرّاحة بعيدا عن واقعي الأليم، قررت أن أرقد مع الموتى عاجلا بأمري غير مؤجّل لانتظار سيل القدر ليأخذ الرّوح في يوم قدرها.

وانَّ لي في نفسي رغبةٌ بأن أتركَ من خلفي كتابا يكون رسالة تُطرح فيها مأساتي من بين آلاف المآسي التي لم يعد لها صيتٌ بأن تبلغ بصخبها الباحّ، آذان من لا وعي لهم بما يحيط بهم من أرواحٍ كَتب عليها القدر بأن يكون لها نصيبا من الجزء المظلم للحياة، وهو الحظُّ التعيس.

وبقرار داخلي وبصوت الرغبة الملح لإدانة نفسي بمشنقة الموت لأزيّن بها خاطري وأقطع نَفَسَ العذاب نهائيا عن هذه الدّار، لأسبق الموت في مضمار الحياة، وأسكن للموت ليهدأ صرير رأسي بأفكاره، وأفرش بساطا ينام فيه خاطري بلا وعي إلى الأبد، وتسكن الروح قِمَّةً من قمم الراحة وينطفئ الوعي تماما من ضجيج عذاب الضَّمير، وألحقَ بسربِ فوات الأوان ولو بعجلتي هذه.

أريدكَ أن تتوقف عن إمالة أفكاركَ إلى كفَّة المنطق، لترجّحها منتقدا ما أتلُوه عليكَ الآن، وتغلق باب بعض المبادئ التي يصيح بها عقلك وأنتَ تلعن موقفي هذا وتُوقف عجلة استهزائك بي، لأني سأكرّس بعضا من وقتي البخس الرخيص لأتلو عليكَ مأساتي بحذافير أحداثها التي سلبت مني وقتي فوضعته بعيدا عن كل صواب، وحجبت عني شمس رؤية الحقيقة فلم أدرك منها شيئا حتى دنت إلى غروبِ الأوان.

إنّي أرى ملل خاطرك الذي تترجمه حركات عينيك البطيئتين، إنّي أعتذر للغوص في أمور قد تجعلكَ تتيه دون رجعةٍ إلى فهم مقصدي، اعذرني لأنّي تماديت في سكب يأسي في كأسك، وإن لم تمانع سأدفع بالكوب التالي لنتمَّ الحديث لأنَّ القلب مُلِءَ غيظا والخاطرُ طابَ للخوض في باقي الحديث.

تنامت تفاصيل أيامي الأولى لطفولةٍ عانقتُ فيها أحاسيسي ووجداني أيَّاما لا تبدّل بالذهب، فإنَّ المرء لا يعيش أحسن منها بعد أن يغادر بسنّه تلك المرحلة، وإنَّه ليزداد شوقا لها كلّما جالت به ذاكرته إلى أيامّها الخوالي، وإنّ الذكرى فيها لتغدو كالخيال في ذاكرة المرء، فلا يعدل فيها القياس على سِنِّ الفتوة والشباب شيء.

ومنذ أن فتحتُ عيناي بوعيي الضئيل لأدركَ ما حولي في سنّ صباي، لأجد نفسي الإبنَ الوحيدَ للعائلة، فشعرتُ بإحساس المكانة التي اعتليها في قلب والداي، ومقدار الحبِّ والحنان الذي حظيت به، وإنّي أذكرُ إذا همست في أذنيهما برغبة أَحبَّها قلبي تسابقا على توفيرها لي فلم أعرف منهم معنى الرفض أبدا. كانت غرفتي البهيجة ممتلئة بالألعاب التي لا تعدُّ ولا تحصى، والثياب

الملوّنة وكان أكثرها جديد، فلا يكادان يلبساني أثوابا مرتين أو ثلاث مرات حتى تضحي مكدَّسة في خزانة الأشياء القديمة، فقد كنت كالملكِ في قصر عائلة لم تترك صبايَ يمرُّ إلّا في عزٍّ يَحلُم به الكثير من أقراني.

ولم يخيَّل لي أن أفارق بهجتهما وبسمتهما وهما يمتّعان بصرهما ويقلّبان ضحكاتهما بضحكاتي، مهتمين بجد لإطفاء حزني ولإمضاء أجمل الأوقات معي، كنت لهما كالشمعة التي تبدّد ظلام البيت وتزيد أنُسه، فرقص قلبهما ابتهاجا وهما يكِنّان لي كُلّ حبّ وحنان، ولم يفارق قلبي دائرة حبّهما وتعلّقي الوطيد بهما، فبلغا أشدّ درجات الواجب تجاهي، ومرّت سنين الطفولة في حضن دافئ ورغبة قانعة وفترة كانت أجملها في سلّمِ حياتي.

وامتدّت الأيام لتزيد في سني وتفتح عيني على الوعي شطرا بشطر، ورأيت ذلك الفارق الكبير بين عائلتي وباقي العائلات في رغد المعيشة من بيت واسع بزخارفه المزينة وستائر من حرير، وتلك الأنوار التي تجعل ليله نهارا والكثير من الخدم يسعون جاهدين ليحافظوا على ترتيبه ونظافته، والحديقة الواسعة بأشجارها وأزهارها الجميلة كأنّها تُفني رونقها لتملأ العيون بهاء وجمال، كنتُ كالأمير بين جدران هذا المنزل، وكقبس النور في عيني أمي وأبي فسرورهما بي وأنا أكبر أمامهما جعل الحياة عندها لا توصف من بذخها وعزّها.

وإنّ آية الزمان تموج كالمدّ والجُزر، فحينا منها تذيقك من قدرها الشنيع حتى يتبدد صبرك ويزيد يأسك بالحياة فتكره نفسك فيها، وحينا منها تجعلك مالكا لها وراضيا عن نقائص نفسك دون أن تدرك ذلك.

وأتت الأيّام بخريفها وبكلّ ما تحمله لي من مفاجآت، فبعد أن كان لي نصيبٌ من العزّ والخير الوفير، انقلب الحال في لمحة لم أعمل لها حسبان، ولو رأى عاقلٌ حياتي من قبلِ هذا لما صدّق إنقلاب موازينها.

الظلام ينبثق من عبق نور تلك المصابيح، وأركان البيت أكثر سوادا من حلكة الليل، وأصبحت تلك الستائر الحريرية أطياف أشباح تهزّها ريح الغضب لترفرف بها وتعانق السقف وسط جَوٍّ موحش تملؤه أصوات نحيبٍ تصدر من كل مكان، كأنّ البيت يريد أن يُبعث بما في داخله، خُرب جمال البيت وذهب دأب نشاطه وانكسرت تلك الشوكة التي جمعت الأرواح الثلاثة، ومن الوهلة الأولى التي رأيت فيها وجها غير وجه أبي وأنفاسا غير التي اعتدتها وأنيابا كشّرت لتبثَّ غضبها وتملأُ روحي بالفزع، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم أبا قاسيا وزوجا جاحدا، ورغم كل هذا لم يكن لي علم بخَطبه أو راجحة لمعرفتي أميل بها لأفهم ما يحدث.

كان فكري عقيما لأفهم كلّ هذا التحوّل حتى جاءت تلك الطامّة التي سمعتها أذناي من عند أمي بعد إلحاحي الكبير عليها، فلم أقدر على العيش في جحيم دون أن أعي سببه، وكيف لي أن أطيق تغيّر الأحوال دون معرفةٍ لأسبابها.

ولا زال وقع كلماتها حرفا بحرف في ذاكرتي إلى يومنا هذا:« فلتعلم يا بنيّ، إنّي ومنذ أن جمعني الزواج بأبيك ونحن في كنف السّعادة والحب، وإنّ الأيام لشاهدة على ما يكنّه لي من مشاعرَ جعلتني ملكةً لقلبه وقصره هذا، ومرّ على زواجنا ثلاث سنوات ونحن نصبرُ على القدر الذي أبى أن يمنحنا

مولوداً يجمع شملنا ويزيد أنسنا، فطفنا أرجاء البلادِ على نيّة إيجاد علاج لهذه العلّة، وبعد زيارة عشرات الأطباء اتضح أنّي عاقر لا ألد، أمّا أبوك فاستقبلها بصدرٍ رحب لما قد طرحه القدر علينا. مرّت سنة على ذلك وأنا لا يهنأ لي حالٌ من علّتي حتى نزل عليّ الخبر كالصاعقة وحلّت صدمة ذبحت قلبي وملأته أسى، وذلك بسبب رغبته في زوجة ثانية لعلَّ الله يفتح له باب ذريّةٍ تُفرح قلبه وتُبهج جمعه وتؤنس وحدته، فطرحت له من عبارات الحب والاهتمام ما طرحت وذرفت من الدُّموع ما ذرفت، حتى رقَّ قلبه ورأف بحالي، وأتينا بك من عائلة يقضمها الفقر فرأوا أن يبعدوكَ عن لقمة الحرمان ويسلّموك لأهلٍ يحرصون على أن يجعلوا الدنيا بساطا لكَ لا تشتكي فيها من همٍّ أو غم.

وكان لكَ ذلك، فأنت شاهد على نفسك، فلم نترك لقلبك رغبة ولم نهنأ لحزنك، وشاركناك حُبَّ قلوبنا كأنَّكَ قطعة من روحنا وجعلنا منكَ شابًّا يافعاً واعياً وسكنت قصرًا لا تضجر فيه.

ولكن عندما أصبح زوجي يرى مِن أصحابه الذين لهم ورثةٌ من أصلابهم متفاخرين بما أنجبوا، تمالكه النّدم وتعالى الأمرُ في نفسه فلم يهدأ له بال، فصار عابسا بائسا ملقيا اللَّوم عليّ بأنّي غررته وأغويته فذلك ما جعله ينقم بسخطه ويفيض بغضبه علينا، ولتعلم أنّي لم أشك في حبّي لكَ يوماً ولم أبخل بذلك عليكَ أبداً، فلا تجزع منّي ولا تغضب، فإنّك كلُّ ما تبقّى لي من قطع هذه الدنيا الفانية.

هنا كنتُ أتمنّى أن تُسلب روحي وتشق الأرض فأُؤخذ لجوفها ويصيبني الجنون فأرتاح للواقعة، فإنّ الحب الذي كان داخلي قد استحال إلى جذوة نار مشتعلة تقضِمُ فؤادي قضماً، وأخمدت نيران أفكاري بصقيع الدهشة الذي جعل جوفي يئن أنينا محزنا ترددده رياح الانكسار في أعماقي.

وهكذا حتى فتحت بابَ الرّحيل دون أن أدري ما قد خلّفته من ورائي، فخرجتُ شاردًا حائرًا قاصدًا مطالع المجهول.

واتّخَذتُ من هذا البيت الخرب مكانا يجمع شتاتي وأحزاني، فلا أفارقه إلّا للحاجة، وفي وسط كَبوة الوحدة وشريط الذكريات أستطيع أن أرى تلك الأجنة النورية البهيجة من السعادة التي كانت تظلّلني أيام طفولتي فيتفتح لها صدري وتشرق لها نفسي وتسمح لخيالي بأن أرى أركان البيت الغنّاء، وأشمُّ ريح حديقة طالما كانت متنفسي وبديع ما يملأ عيني، فأنسى شتاتي ويذهب عنّي يأسي ويتخلّل روحي راحة طالما افتقدتها، راحة النفس وجمال الأيام وسعادة ظننت أنّها لن تبيد أبدًا.

وسرعان ما يكفّ كل هذا وخزة خاطفة من الواقع، لتدفن كل هذه الذكريات بعيدا عني، وبقيت منفردا غائبا عن وعيي وحاضرا ليأسي، وإنّ نفسي الآن لتوآقة لأن تبعد هذه النزوات التي تجتاح قلبي من حين إلى حين، فتسيل قطرات الدمع أسكبها في خلوتي لينتابني شعور القهر بأنّه لا أحد على هذه الأرض أشقى منّي.

هنا علمتُ أنّ نفسي كاذبة والدنيا كاذبة وأن زينة الدنيا لفانية، وأنّ عطاءها لَوَاهٍ وأنّ رخاءها ليجعلكَ مُديناً فسرعان ما تدفع ثمن سلواك، فتغمرك من كلِّ جنب فلا تجد مفتاحا يحرّرك من بأسها إلّا كأسَ السمِّ هذا.

أَشجارُ الزَّيتون

هو الملاذُ الآمنُ والمخلصُ الصَّادقُ والسَّنَد على طول الطريق، عرفه الرّاشد فجعله لنفسه خليلا يطرح له همَّه، ويستريح له ويستفتي لنفسه منه رأيا، ولم يترك الشَّاعر في قطع من أشعاره إلّا وصاغ مادحا واصفا فضله وخصاله ولن تجد في آراء أيٍّ كان من ينكر عليه هذه النعمة التي وُضعت خصيصا لأناس صدقوا الوفاء عهده، رابطة جعلت النفوس ترتاح لأنسهم ويطيب خاطر المرء وهو يجالس خير رفيق لروحه.

وإنّي في حياتي لم أكفّ عن السعي قاصدًا أن أحظى بهديّة القدر، وأحظى برفيق الدرب الذي لا يرى فيَّ رؤيا مصلحة أو ما شابه من أشباه الأصدقاء الذين هم كثر في هذا الزمان.

وبصَمت الأيام بمكاتيبها والتقيت فلانا، فتراءى لي من خلاله غياب النقائص التي اعتلت العابرين من قبل، فإن سألت عن الوفاء فهو صاحبه وإذا سألت عن الطيبة والوقوف عند الكلمة والنزاهة فهو جدير بها، فلا أستطيع أن أقدّم بحروفي البسيطة وصفاً لكلّ الخصال الفيّاضة التي تمثّل من خلالها هذا الشخص القريب للتكامل بالنسبة لرغباتي، فسكنَت له روحي وأُنيرت به لحظاتُ أيّامي وأصبح لقاؤه يسرُّ القلبَ ويريحُ النَّفس، فعند كلّ حوار تنحلُّ عقَد الأسرار وتسيح لتبلغ أوجّ قمم الصرّاحة فلا يبقى حجاب يستر رغبة القلب فيجعلها تفيض فتتحرّك الألسن لتنطق دون كذب، كأنّك تخاطب نفسك فلا يخفى عنك شيء.

وصاغت الأيام بريشة قدرها وكتبت بأن تجعل سدّ الفراق يقوم بيننا، وكانت الغربة قد سحبته في ظروفٍ خاطتها بدقّة حيث سافر قاصدًا بلاد الغرب إثر نجاحه طالبًا إتمام دراسته بمرحلة الدكتوراه، التي كانت هدفه منذ سنين تخرّجه من الجامعة.

امتزجت فرحتي بفرحته وانتابني حزن الفراق الذي يشدّ قلبي فلا أكاد أصدّق أنّي سأُفلِت من يدي أعزَّ الناس إليّ، فتراسلنا حقبة من الزمن وبمرور سنة من الزمن انقطع كلُّ اتصال بيننا، فامتلأ قلبي حزنًا وبالي ظنًا وتاه في وساوس أقعدتني، أفكر في كلّ الأسباب فنسيت نفسي ومرّت بي فترات أرتاب في وفائه وصدقه تجاهي، فلا أكادُ أبُعد تلك الأفكار حتى يختلي ذهني في ذكرياتنا، فألعن شيطان رأسي وأشحن ظني خيرا بأن ظرفا أصابه فأقعده عن أن يكتب لي، ولا تزال الظنون لا يتوقف وقعها، ومرت السنين تقطع صبري بسيف زمنها، حتى مرَّت عشر سنين وأتاني خبر من أحد زملائي بأن صديقك عاد، وأنَّه قد عاد وعاد بطبعٍ جديد، عاد ومعه زاد غير الزاد الذي ألفته الناس به، فقد غيرت فيه سنين الغربة ما غيرت حتى أصبح كما يتهامس الناس نسخة من بني الغرب، وشخصا غير شخصه القديم، فالكلام عنه قد ملأ أفواه الناس بما قد أحدثه من عمران جديد على أنقاض البيت القديم.

فتأخّرت عن زيارته أسبوعًا لعلّهُ يكون هو الأسبق لزيارتي فخابت ظنوني واشتدّ قلقي وأصبح الأسبوع شهرا فأشهر، فلم يأتني منه اتصال ولم يصلني منه كتاب، عندها صدقَ ظنّي الميؤوس أن الغربة لعبت بطبعه.

فقررت عازمًا بأن تكون قدمي الأسبق لزيارته لعلّي أحيي فيه شيئا ممّا قد ذكر الناس أنه قد نسيه.

كانت بضعت أشهر كافية بأن يُهدم البيت القرميدي البسيط ويُدكّ سورهُ الحجري الرث، وتقتلع أشجار الزيتون الثلاثة من أمام المنزل، وتذهب تلك التفاصيل في لمحة من الزمن كأنّي لم أرَ هذا المكان منذ سنين وليس لأشهر عديدة، فالبيت القرميدي أخذت مساحته فيلا شامخة بقرميدها اللامع تحت أشعة الشمس، وسورها المرتفع كأنّها تحمي قصرا من قصور الملوك وتلك الحديقة الغناءة بتنوّع أشجارها، وألوان أزهارها، كأنّها جنّة بُدّلت بجحيم الذاكرة.

لم أتمالك ما رأته عيناي من بنيان وجمال عظيمين، فتغير كلّ شيء من حطام الذكريات إلى معمار جديد، كأنّ الكوخ القديم بذكرياته لم يكن كافيا ليوقف مَن بطش به، وأشجار الزيتون المعمّرة الشّاهدة على ما حدث في تلك الأرجاء لأجيال عديدة، فامتزج حزني بغضبي، حزني على قطعة الذاكرة التي هُدمت، وغضبي على أحمد الذي تبيّن أن الغربة قد لعبت بعقله وغيّرت من طبعه.

دخلت أتبَعُ خطوات الخادم يقودني حيث موضع سيّده وأنا أتأمّل في صنيع المعمار وبديع الأزهار والأشجار وتنوّع الثمار وانبساط مناظر الزينة والجمال في كل زاوية وكل ركن حتى التقط بصري مسبحا كبيرا بمائه الصافي، توقف سيري وأنا ألمح أحمد يتمشّى بالقرب من المسبح، كان هو بأكتاف عريضة وقوام يجذب النّظر وهيئة توحي بشخص ذي شخصية مهيبة يجمع كل ألوان التغيير فيه، فلا شيء فيه يجعل ذاكرتي تلملم شيئا عن صورته القديمة.

إنّ الوجه وجه أحمد لكن أين تلك الملامح التي اعتدت أن أراهُ بها، أين هي ابتسامته المعتادة، كلّ شيء دفن من وراء ردّة فعل مصطنعة خيبّت ظنّي وحطّمت قلبي.

وأنا أتأمّل في تفاصيله وحركاته كأنّي أرى مَن أمامي شخصا جديدا، شخصا غير الذي أعرفه، أصبحت ألوان الغربة تلوّن كل ردّة فعل يقوم بها كأنّه أصبح نسخة من أهل العجم، ومسحت نظرته الصارمة تلك البشاشة التي لم تنسها ذاكرتي، وبهيئة غربيّةٍ خالصة، بسروال الجينز الإنجليزي وقميص بطرازه الألماني الحديث، وساعة لا أعرف أي شركة تافهة أقنعته بأن يبدّل بها ساعة أبيه القديمة التي لم ينزعها من قبل.

عندها أيقنت أنّ الوجوه مرايا النفوس، فقد أخذته الغربة منذ سنين ولم يبق في ذاكرتي إلا ضياؤه، فخُيِّلَ لي أنّي أرى رجلا غير صديقي، أنّي لا أرى به شيئا من صورة الماضي.

تباطأت خطواتي وأنا أقترب إليه مقدّمًا له التحية.

اقترب وبيده كأس الشامبانيا يقلّبها.

ـ اجلس لنرى ما تحتاجه يا سيدي.

تجمّدت في مكاني مندهشا من سؤاله عن سبب زيارتي له!

ـ أيعقل أن تسأل يا أحمد! كأنّك تمازحني أنا صديقك في الأيام الخوالي، ورفيقك الأول في سنينك الماضية وأنا من قلتَ عنّي خيرُ جليس ترتاح له نفسك، أيعقل أن تنسى كل هذا يا أحمد؟

تحرّك من مكانه يحوم من أمامي وأردف يقول:

ـ اه يا صديقي إنّ السنين التي قضيتها بالخارج كان لا بدّ لها بأن تجعلني أطوي صفحتنا كما لا بدّ أن تطويها أنت، وأنا الآن ماضٍ في حياة جديدة أبحث فيها عن أناس جدد وعن أشياء مختلفة، إنّها الحياة وهذه هي سُننها، وإنّ الذي كان بيننا لا بدّ له من ختام ونهاية فلا شيء يدوم في هذه الدّار.

اختلطت عليّ المشاعر بين الارتباك والدّهشة والحزن وهو يلقي كلماته، كأنّ الذي يتحدث غير الشخص الذي أعرفه.

عندها أدركت أن هذه الكلمات صادرة من كيان قد غيّره الوسط الذي كان فيه، وأنّ ظلام الغرور وكيان التكبُّر انبسط على حكمته فتسلّط بها فهدمت نفسه وهدمت ذاكرته، فامتزج الكبر بطبعه، فَمُلِئَ قلبي إشفاقا وغيظا لحاله، وأردت أن أفرغ ما يملأ صدري على سمعه وأغادر المكان دون رجعة، فإنّ نفس أحمد بطشت بها الغربة وإنّ شبح الغرور قد سطا عليه.

كبحت دهشتي وحيرتي وأطرقت أحدثه:

ـ والله إنّ الكلام لا يقدر أن يغادر لساني، وعين تشهد حالك هذه بأيّ حديث أخاطبك؟ أأنصحك وأنت من كنتَ ناصحي؟ أو ألومك وأيّ حق لي بهذا وأنت حرّ في حياتك كما تدّعي؟

ولتعلم يا أحمد أنّي علمت بنفسي أن وراء هذه الأسوار والحدائق والبنيان العظيم، لنفسا غيّرتها الغربة في ظرف قصير فأين أنت مِنْ أنْ تهدم بيتا أنار أيام طفولتك الزاهية، وجمع شتات شبابك في كنف عائلتك الراحلة، كان

ذلك الكوخ يظن بك غير هذا، فهو صندوق ذكراك عندما يحنّ قلبك لأيام الماضي.

وأين أنت من أيام لم يمض عليها إلا سنين الود الذي جمعنا بعلاقة الصداقة الحقة، حين كانت تجتمع أنفسنا فيرتاح البال في كلّ حديث وتُزال عقد الأسرار ويسترسل اللّسان، ونتسامر ونتبادل الهموم والأفراح، فإنّي لا أذكر يوما مضى دون أن يطمئن الواحد منا على الآخر، فإن انقطع اللقاء لأيام لا ينقطع بيننا اتصال، ولكن بعد أن خطوت بقدمك قاصدا بلاد العجم تغير طبعك وانقطع اتصالك عني.

وإنّ هذه المعيشة التي تحياها لا يتعلق بها إلّا فاقد الوعي في العقل، والإدراك في القلب، ومن مالت بهم الدنيا لتغلق عين بصيرتهم وأصبحوا كالدُّمى، تلهو بهم غرائزهم، يتأرجحون بين طبع الطمع تارة وطبع التكبر تارة أخرى، وإنّك بخطاك تسير في طريق لا مسلك لرضى روحك المخدوعة فيها من شيء، وإنّي أذكرك أنك كنت في عين الناس ذا شرف فأوقعت بسمعتك الأرض فتلطّخت بطين الوضاعة، وإنّي أدهش في رأيكّ بالصواب فيما تفعل، فإن كنت ترى بعد ذلك أنّك على صواب فقد خلت رقعة الأرض من المخطئين.

واجبي تجاهك بأن أنصحك يوم تشتدُّ عليك طوارق الزمن، فما أرجوه منك إلّا أن تلعن شيطان غرورك وتعاهدني أن تجعل لنفسك خُلوة تبعد بها سحر الأوهام التي ربطت بها نفسك، وتندم على ما اقترفته يداك، وتطوي هذا الكتاب ولنعد لنتسامر أيام الماضي بصفحة جديدة، ونعش ما بقي من هبة الزمن تحت ظلّ الفضيلة.

وطال حديثي واختلطت كلماتي فلم أستطع كبح لساني حتى مدَّ يده على كتفي بنظرة صادمة خلعت قلبي بوجه شاحب وعينين تملؤهما الأسرار، فأحسست أن وراء هذه النّظرة الكثير فأردف قائلا:

أنا يا سيّدي لا أحبّ أن أكون معك كاذبا أو مفتعلا للأسباب فإن ما مسح بشخصي القديم وأقام هذا الذي أمامك، لزلّة أصابتني وأخذت بنفسي لألتقط أول خيط من خيوط حياة الاختلاف، فمنذ أن بدأت دراستي وعملي بالخارج تحرّك شغفي وحماسي، فزاد وقت الجد والبحث والاجتهاد، وتضاءل وقت فراغي حتى كاد ينعدم، فأخذتني هذه الأسباب دون وعي بأن لا أرتاح لنفسي، وأجمع شتات أمري، فأفرغت اهتمامي بما خلفته من ورائي، من أشخاص وذكريات، وذهبت عني ذكريات الماضي ونسيت نصيبا جليّا منها، حتى جاء اليوم الذي أتى على نفسي شيء من الحنين إلى الديّار فقرّرت أن أعود للوطن وأستقر فيه وكانت خطواتي في تراب بلدي خطوات غريب، فذهب شوقي لها وذهب عن أنفي ريحها، ولم أستطع أن أجمع من شتات الذاكرة شيئا وأنا أطوف بالكوخ وأتحسس حديقته البسيطة وها أنت ترى ما صنعته.

وإنّي رأيت الناس من حولي قد كشروا أنيابهم كرها ومقتا، كأنّي كيان أفزع قلوبهم، وإن المرء إن مال عن شيء قد ألفوه عليه سيمقتونه ويصبح جبانا برأيهم، وما أنا إلا مريدٌ لحياة أفتح بها بابا أعيش فيه برأيي وحكمي لذاتي بعيدا عما يعتقده الجميع، وإني لست بارا بالناس حتى يخفى لهم طبعي وفعلي، فهم ضعاف القدرة لفعل الخير، لكن ألسنتهم لا قدرة لأقفال الدنيا أن

تغلقها، أما أنت يا سيدي فإني لا أنسى طرف أيامنا مع بعض، ولكن أنت أدرى بما تخفيه نيَّتي لذا اذهب فإنّي شخص غير الذي ألفته من قبل.

قالها ببرودة جَمَّدت أفكاري وحرَّكتني بعيدا عن داره، كنت مقتنعا بما سمعت الناس تتكلم عنه، فلقد أصبح شخصا غير الذي أعرفه، وأدركت أن للغربة ريشة لرسامٍ اسمه التغيير فهي تبدع في الشخصيات الضعيفة فتصنع بهم ما تشاء.

تَعبيرٌ رَكيك

-1-

اسمُه عازف، وهو أكثر الرّجال شُهرة بمدينتنا بماله وجاهه ومنصبه، يعرف جميع سكّان البصة، قصّة هذا الرّجل الذي جاءها مراهقا من بلادٍ بعيدةٍ واستقرّ فيها وبدأ دربُ حياته بعربة القماش، يجول بها في الأزقّة والأحياء يبيع ويحسن فنَّ البيع، وبشكلٍ احترافي، وسرعان ما زال شعور الناس تجاهه بأنّهُ غريب دار. كبرت تجارة عازف وفتح متجرا بوسط المدينة وازدهر عمله، ومرّت السّنين وكبر كسبه وتعددت المحّلات تحت اسمه، وأصبح كالنّعمة على البصة فقد وظّف عشرات الأيادي العاطلة، حتى أصبح يلقّبُ ببارون القماش، ولا زال على ذلك في طموحه للكسب فتعددت العقارات والمحّلات والأراضي التي كسبها، وانتشر جاهه وأصبح يعرفه الصغير والكبير بكرمه وحُسن خُلُقه وتواضعه مع الناس، حتى بلغ بسكّان المدينة أن أقنعوه بأن يترشّح لرئاسة مجلسهم، فظفر بها وساق المدينة إلى برّ الإزدهار وأصلح فيها ما أفسده السّابقون، ثم تدرّج في المناصب حتى بلغ مقامًا ساميًا في البرلمان، ومنذ أن سمعنا ذلك الخبر اختفى عن الأنظار، وما سمعنا خبرًا عن مكانه واختفى لسنين عديدة حتى كادَ الناس ينسَوْنَ أن لعازفٍ قِصَّةً في البصة، لولَا تلك الفيلات الموصدة أبوابها والمحلّات المغلقة لزمنٍ طويل، وتلكَ الألسُنُ التي تحكي قصّة طفل العربة الذي أصبحَ ذا ثروةٍ يُحسد عليها، وها هو اليوم بشحمه ولحمه بعد عشرين سنة من الاختفاء يُمّثَلُ أمام قاضي محكمة البصة في مشهدٍ لم يفهم أهلُ المدينة منه شيئا.

وُلِد عازف في قرية عند أقصى جنوبِ البلاد، وفتح عَيْني وعيه بسنٍّ صغيرة، ليجدَ نفسه يتيمِ الأب، وحيد الأخ، فقير الحال بوضع بائس. وكانت أمُّه قد خدمت البيوتَ كثيراً حتّى فقدت كرامتها، وخاطت الأثواب حتى نقُصَ بصرها، وصنعت أواني الفخّار حتى أمسكت الرعشة يديها فما بقيَ لها شيء تكسب به رزقها ورزق أبنائها، فما كان لها إلا أن تمدَّ بيدها تطلب إشفاق الناس عليها، وكان عازف دائما ذلك الطفل في حجرها يرقب الناس بعينٍ غير عين الطلب، يتأمّل بدقّة تلك النظرات المحتقرة والوجوه المرتسم عليها الإشفاقُ والإحتقار، فأدركَ بذلك مكانته الدنيئة في المجتمع.

وهل يمكنُ أن نقول إنّ هذا الفقر الذي فتح عينيه عليه شيء أشبه بقدره المحتوم، أو أنّه ذلك الإرث في عائلته، فهو ابن عائلة فقيرة توارثت الفقر أبًا عن جد، كأنّهُ ليس لهم أن يرثوا غير تلك المعاناة.

كبر عازف وكبر همُّهُ معه، وكان قلبه الليّن المضغة البريئ الصنعة قد أوهنه اليأس وفجعه، وزاغ طبعه وفاء لينه، وزالت عنه الفطرة، وركبه الضعف ببؤسه، والحقد بقبحه، والبغضاء بظلامها، وأصبحَ البؤس والفاقة قدره، والخوف في جوفه لا ينتهي، فما أطاق حاله، وما صبر على كدر القدر وكفر بفقره، وأنكر رتابة القدر عليه، فخضع لظلام قلبه، فاليد التي كانت تطلب الناس أصبحت تختلسهم، مستغلًّا في ذلك احتقار الناس له فأبطن نيّاته وحقيقة أعماله، وتلبَّس بالضعف والوهن، يمدّ يده لجيب مارٍّ غافل ويرقبُ البيوت نهارا فيأتيها ليلًا يأخذُ من مال صاحبها بلا مبالاة، فكسب من ذلك

مالا وفيرا لكن لم يكفه ذلك ليغلق فاه، وهو على حاله حتى شاع حديث اللصّ الخفيّ في المدينة، فكثّرت الأعين المترقبة وتغيّرت الأوضاع وصعب الوضع على عمل عازف فقرر مغادرة المدينة ومتابعة ممارساته المعتاد عليها، لكن كان يعرف أن البلاد الغريبة عنه ستضعف حيلته فيها، فالحيلة الضعيفة تحتاج للتجديد والتغيير، وعزم في إحدى الليالي بأن يقوم بآخر سطو له في المدينة، فحدَّد المكان الذي قلّت من حوله الأعين الحارسة، وهو المسجد، فدخله كالبهيمة وأخذ كلّ شيء يصلح أن يبيعه حتى المصاحف.

وعاد إلى كوخ أمّه القديم، وتحت الحصيرة أين كانت تجمع المال منذ عدّة سنين لتشتري كُرسيًّا لأخيه المعاق، وأخذ عازف كل فلس جمعته تحت جناح الليل وغادر المدينة بغير رجعة، غادرها آثمًا وعاقًّا ولصًّا لعينا.

وقصد البصة بمالٍ وفير، فاشترى لنفسه عربة ووفرة من القماش يجوب أحياءها ويبيعهم السلع بثمن بخس يخسر فيه من ماله، ولكن يكسب من محبة الناس الشيء الوفير، فلقد انتقل من سرقة الجيوب إلى سرقة القلوب وعرف أن النّاس تجرّهم قلوبهم، وإن أمسك بهذهِ المضغة وتمثّل لهم بما يرضيهم من المظاهر سيسير في طريقٍ يعرفها جميع المحتالين، ويتسلّل إلى درجة رفيعة يصبح فيها كاسب المال والشأن، عليّا محترما تهابه الناس وتحترمه.

فبعين قلبه الهيّن كان يرى طريق الغنى مركبا صعبا وكثير الحوائل والعوائق، أمّا الآن وبالغلاظة التي فيه، وجد طريقه سهل المرام، قريب المتناول سهل المسلك وهيّن المبدأ، فبعد أن امتهن الاحتيال وسوء الأعمال، بلغت به

درجات الكسب مبالغ البذخ، وقاد البصة إلى الازدهار بعد أن عُيّنَ واليا عليها، وتدرّج في المناصب حتى بلغ البرلمان وحاشيته.

وخرج من البصة خروج الصالح المختفّي، وقصد الغربة يتبع نهمه للمال والسلطة، يمشي بحذو مكره حتى ذاق من نعيم الدنيا ما تحمت به نفسه وأذهبت نهمه للكسب، وأوجلت قلبه وألانت قسوته وتفطّن لعمله وتدرّج الوعي لعقله وجاء اليقينُ خاسفًا ناسفًا ليبيد أفكاره التي إتَّبعها، وبرزت من حجابها الحقائق وتبيّن له خيط الصواب من خيط الخطأ وسكن الندم ضميره وساقه سوق التائب عن الذنب ساعيا لصفح الدنيا قبل الآخرة، فقصد مسقط رأسه لعلّه يجد أمّه التي أخذ منها مالها، وقد نوى أن يقيم لها قصرا من الرّخام وبستانا من مختلف الثمار والألوان ويفرش لها الأرض بالحرير والريحان ويمدّها بالخدم لينقص عن كاهلها شقاوة الدنيا والزمان، ويصلح بذلك خطأه ويريح قلبه ويهنأ باله من نخرة الضمير، فما إن بلغ المدينة وسأل عنها وعن مكانها حتى حدّثه أحد:

ـ أنّه قد هجرها ابنها وبكت عليه حتى أذهب الدَّمع بصرها.

وقال آخر:

ـ إنهّا عاشت أيّاما بلا طعام تبكي فقيدها حتى احترق كبدها وذهب بصرها وانطفأ نبض قلبها وماتت على حزنها وحيدة في كوخها.

جعله الخبر يتلوّى في لُجَّة من الجنون، ولم يجد في صوابه شيئا يمسك به هول الصّدمة التي أصبحت أمام ناظريه كالجحيم، لا يبصر إلا ظلَّ ذنبه يلحق به

لا يفارقه ويؤنّبه دوام الوقت، فجاء على باله أن يعود للبصة ويسرد قصته ويفضح أمر أعماله لعلّه بعد هذا القرار يستريح ضميره.

3

إنّي أنا عازف وتلكم كانت قصتي، بظاهري وحقيقتي.

وإنّه ما قادني شيء لهذا الاعتراف كما قادتني الفطرة التي ساقتني سوقا لهذه الأوراق التي لم أعتد أن أكتب فيها شيئا عن حقيقتي.

ولتعلم أنّي أصبحت ضالًّا في هذه الدنيا، مضرّا فيها بنفسي، ظالمًا بها غيري ضائعا في شرّي وظلمي، ظافرا بيأسٍ لا ينتهي، وإنّي كاشف نواياي غير مضمر لها، فقد ضاقت بي الأيام فوجدت الاعتراف ضالتي وليته يكون ضمانة لنجاة روحي الضالة من درك الظلمات.

وظلمي للناس جاء من ظلمي لنفسي، بعد أن قتلت الفطرة فيها وأقمت بها الظلم والظلام، وبدا لي هذا هيّنًا أمام كبريائي العفن، وجبروتي الذي أعمى بصيرتي وأوقع بي في خطايا أكاد أجنّ لفظاعتها، وما لندمي هذا من حول وقوة قد يرفع بطشي عمّن أخذت من حقوقهم، وسلبت منهم أعزَّ ما ملكت أكباد قلوبهم.

إنّ من قاده عقله للمنكر دون أن يردعه القلب، سيطول خوضه في الظلام وعندما يدرك أنّ الشرَّ الذي فعله في غيره أضرّ به نفسه، حينها تجده يبحث عن الخلاص بأيّ ثمن من ذلك الذنب، وحتّى لو تجرَّع كلّ الحلول ما ذاق منها قطرة راحة، وما بلغها أبدا ما نطق بفاهه ناطق ونعق غراب ناعق.

خِيَّانَةُ الوَطَن

إنَّها إحدى ليالي شهر يونيو، لم تقدر السُّحُب الضئيلة المترامية في السماء أن تحجب نور بدر تلك اللَّيلة المنيرة، الساعة تشير إلى منتصف اللَّيل وخيوط نور البدر تبعث بنورها الضئيل في الأفق البعيد، وعلى قطع من شاطئ رملي تتابعت الكثير من الخطوات تقتربُ من الرّصيف الخشبي الطويل الممتد وسط الماء، ودبّت همسات الحديث وضحكات ضيّقة وتأوّهات مرحة في أرجاء المكان كسرت سطوة الصمت.

ارتفع صوت القائد من قارب قريب للرّصيف، كسر كل الهمهمات ودبَّ صمت رهيب وسط الحشد بآذان صاغيَة وأعين تلتقط حركة يده وهو يرفع ورقة قائمة أسماء.

سمير، جمال، ساعد ، رامز ، إلخ...

وكان صوت "أنا هنا" يتردّد كل لحظة من ذكره لكلّ اسم.

طوى قائد الرحلة الورقة ووضعها في جيب الجاكت، وعدَّل من وقفته وزادت نبرات صوته قائلا:

ليأخذ كلٌّ مكانه ويرتّب أغراضه، لديكم خمس دقائق حتى نكون مستعدّين للإنطلاق.

إنتشرت طرقات الخطوات على الرصيف الخشبي وهي تصطفُّ لركوب القارب، وسرعان ما امتلأت المقاعد المتقابلة للقارب وتراست الأكتاف جنبا

لجنب، واستقرّت الحقائب الكبيرة من أمام الركاب قرب أقدامهم وانتشل بعضهم أكياس الطعام واضعينها على أجسادهم الرشيقة.

ودبّ الحماس فيهم وهم يردّدون في لحن واحد "خليني نروح فبابور اللوح" بصوت يكسر القلب بنبرات صوت اجتمع فيها الحزن والفرحة، واكتفى بعضٌ منهم بأن ينعزل بسماعة أذنه بعيدا عن صخب المكان، قفز القائد من الرصيف بعد أن حرّر القارب من المرساة، ومشى بشبح جسده وسط الجمع المتراص على اليمين واليسار، مرددا بنبرة صوت عازمة:

ـ فلتكونوا جاهزين للانطلاق وآمل أن تكون رحلة اليوم أسرع وأفضل من سابقاتها.

كان وسيم جالسا بزاوية تسمح له بأن يلمح كل من في القارب، يرقب الوجوه بتمعُّن ويتأمّل في تفاصيلها بين الضاحك والعابس منها، كان على يمين بصره يجلس ساعد بملامح وجهه الحزينة التي لم تقدر الضحكات التمثيلية أن تخفيها، فالبطل المَحلّي للماراثون لعدّة مرّات وصاحب الجوائز التي لا تحصى قد اختار القارب على البقاء وانتظار إلتفاتة إهتمام لموهبةٍ ضائعة، وبجنبه رامز الأيقونة الفكريّة، هكذا يعرفه أبناء حيّه فهو يعرف كُلّ الأشياء بالإضافة لكونه خرّيج المدرسة العليا للقضاء، فتحوّل من خرّيج إلى نادل في مقهى الشيخ بوزيد بأجر زهيد ينتظر الفرج في بلاد لا فرج فيها، وعلى اليمين صلاح بوجهه العابس على الدوام فمنذ أن طُرد من عمله بحجة لم يقدر أن يستوعبها لهذا اليوم، وسمير وأخوه شاكر جنبا بجنب يحملان حلمهما بأن يرحلا بأفكارهما الابتكارية في مجال الإلكترونيات إلى بلاد قد تُقدِّر صنيعهما، ولا يكاد

وسيم يحصي أصحاب الشهادات والعقول النيرة والمواهب وخريجي الجامعات، فهذه النظرة تريحه أكثر فهو قد قرّر الهجرة بحجة هؤلاء الشباب على القارب، فجميعهم أعلى منه علما وقدرة وكفاءة وسِنًّا أيضا!

فقرّر أن يستبق الأحداث قبل أن يصبح قطعة من الشباب الضائع في بلده.

ومع دخول أول خيوط أشعة الفجر، كان النوم قد أغشى جميع مَن بالقارب ما عدا القائد الذي يسوق القارب يشق طريقهم وسط الماء المحيط به من كل الجوانب ولا شيء في الأفق إلّا إمتداد بعيد للبحر في منظر مهيب.

مرّ الوقت وأيقظ صياح القائد مَن بالقارب، كانت الشمس قد برزت من حجابها وانتشر نورها وملأت الدنيا بضيائها ومرّت الساعات حتى بلغ قرص النور كبد السماء، فكانت الأجواء تتدلّى بالحماس والكُلّ يرنو ببصره للأفق البعيد يرقب جبال البرانس التي تتضح شيئا فشيئا كأنّها تلوح لهم أن تعالوا وظنّهم بها أنّها الفرج الذي يفصلهم عنها بضعة أميال.

كان عليهم الإنتظار لبضع ساعات وانتظار انسدال الظلام للاقتراب أكثر نحو الشاطئ، والكلُّ في أُهبة الاستعداد لوضع أقدامهم في بلاد غير بلادهم.

ومع الخيط الأوّل للظلام كانت السحب السوداء قد ملأت فراغ السماء وتغيّرت نسمة الهواء إلى ريح هوجاء، وهاج البحر وارتفع الموج وانتشر الخوف والهلع في الطاقم، وملأ الماء القارب واختلط الأمر على راكبيه بين الصارخ والباكي، وما وجد القائد إلّا أن يصيح فيهم أن ارموا بعتادكم إلى البحر وهمَّ الجميع يقذفونها لكن بلا جدوى، فمزال الماء يتسرّب وبكميات متزايدة،

وغمرت الجهة الأمامية حتى إلتهمتها الأمواج وألقى الجميع بأنفسهم وسط شبح الأمواج التي ضربتهم بلا رحمة وغمرت أفواههم بالماء حتى التقطت أرواحهم واحد بواحد.

كان وسيم وسط الموج واهن القوّة ضعيف الحول، مستسلما لسخط البحر وصفعات الموج والهواء البارد، الذي استحال سمّا يشق صدره ويذبح أوصال مفاصله، وتشنّجت عضلات جسمه، ووهن وصعبت عليه الحركة وتجلّت الذكريات تتلاوح في ذهنه بعرض بطيء، وصورة أمّه وهي تودّعه بدمعها المنهمر، شعر بحاجة هائلة للبكاء وحاول أن يصرخ بحنجرته المتعثر صوتها لكنّها كانت كالهمسة، وهو يحاول أن يستجمع أنفاسه دون جدوى حتى أمسكه شعورٌ كأنّه ينفلت من خيوط الحياة وكأنّه أُعتق من شيء يكَبّله وأظلمت الدنيا من حوله وانطفأ النور من عينيه.

بعيدا عن الأمواج التي تحمل الجثث البشريّة المترنّحة وسط الظلام، وعلى الضفة التي انطلق منها القارب، كان السّكون مخّيما حتى قطع صلف الصمت وقعُ خطوات لفتى في مقتبل العمر يسترسل ماشيا على الرصيف الخشبي وجلس إلى الحافّة ينظر في كثب إلى البحر المهول أمامه متأّملا في الأفق البعيد لعلّه يرى صورة أخيه وسيم.

اليَتِيم

الوقت متأخّرٍ في أطراف اللّيل المظلم، وبين قساوة برودته في شهر جانفي وانعدام حركة الأقدام على أرصفة طرق البصة وأزقتها الضيقة والموحشة، وبريح تعصف من كل جنبٍ لتصنع أنغاما مزمجرة لتكون لحنا من ألحان ليالي الشتاء البارد.

وعلى هذا الحال الموحش تتعالى أصوات على آذان تلك الأزقة الوحيدة، صوت بعيد خافت يقترب من مسامعها يطوي صفحات الفراغ الذي مسَّ شوارع الحي، بدأ يدنو أكثر فأكثر ليكسر سطوة صوت الرياح ويطلق نغما ألفته المسامع واعتادت الأرصفة على سماعه، وقعُ أقدام راكضة تقترب أكثر نحو تلك الأروقة كأنّ الريح تدفعها للقدوم، ما زال الصوت يقترب، إلى أن كشف عن الأمر فقد دنا أكثر إلى تلك الزاوية لمنعطف الطريق إلى الجهة اليسرى للحي.

ها هي تتضّح الصورة، إنّه طفل أخذت منه الريح سكونه، وشوّه فيه البرد ما شوه، وأخذت به خطواته إلى تلك الزاوية كالضال يبحث عن ما يحفظ دفء جسمه وتقدّم بتلك الخطوات المتسارعة بخفقات نعله البالي لا يكاد يقيه صر البرد، وسروال ممزق تملؤه الثقوب، وبقميص أكلت منه هشاشة الزمان وصار باليا لا يقيه حتى من لفحات الحرّ، فأين له من برد الشتاء؟ تواصلت تلك النظرات من أعين الأزقة والعمارات مشفقة لحاله، وتتمّعنُ في وجهه الذي رُسمت فيه البراءة تعابيرها، وقد أخذت منه قساوة الجوّ كلّ صور الحياة، فأُخمِدَ نور وجهه وذهب بهاؤُه وأظلم ضياؤُه، وأعين جاحظة

تكبّدت كل صور المعاناة، إرتمَى بجسمه النحيف إلى تلك الزاوية، طامعا في جمع الدفء لجسمه المرتعش وبعث النَّشاط فيه بعد أن جمّدته برودة الطقس، فأخذ يعزف بين يديه ريح فمه لعلّه في ذلك يكسبها دفئا تحت أنغام الصقيع.

ما زال قلبه الصغير يخفق بقوة، وما زال جسمه النحيل يرتعش بين أحضان الرصيف وجدار العمارة، وانهارت تلك الدموع البريئة، تترجم قهره وتعزف ذلك الألم الذي يملأ كيانه، فقد ضاقت به الدنيا، وكسرت الريح رقبة كل وسيلة لنجاته، وصاغت البرودة في جسمه أطياف الإرتعاش.

وتحت سقف هته المعاناة، هدأت العاصفة وأسكتت أبواقها ولفت ريحها الهوجاء بين طيات هدوء كان عنوانا لتلك اللحظات، وما زالت تلك الزاوية العفنة تروي حال الطفل الصغير وتسرد معاناته بين أطرافها، لم يكن ذلك الهدوء بداية لسكينة ، بل كانت منعرجا لتقلب الجو ورسم صورة أسوأ، فلقد امتلأت السماء بجيش من الغيوم السوداء، وأطلقت رماح ثلوجها على المدينة، فزادت من تعقد الأمور على تلك النفس البريئة لتزيد من درجة يأسه، التقطت أنظاره تساقط الثلوج التي بدأت تغطي أرجاء المدينة ويتغير لونها من اختلاف للألوان إلى أبيض سيكون لباسها في تلك الليلة.

كان الصمت عنوان تلك اللحظات وبجوّ يلوح ببرودة سترسي شؤمها على تلك المدينة، وبلون أبيض يبعث الخوف في القلب البريء لطفل مترامٍ بين أكتاف العمارات، ويبعث بصرير الفزع في جوفه، وبعقل لا يعي أي قرار يتخذه في ذلك الوقت، رفعت العمارات ببصرها مرة أخرى إلى حاله وهو يضم يديه

الصغيرتين إلى صدره وبأقدام ترتجف وبأعين مقهورة، فأوقدت فيه البرودة فتيل العذاب تحت سقف سماء لن ترحمه في تلك الليلة، وبين النفحات التي تقطع أوصال الدفء في جسمه، لم تلبث تلك اللحظات على حاله التي شهدتها الأزقة بأعين لا تغمض ترقب مايحدث بين ثناياها، حتى قام الطفل يجمع قواه المشتتة، وبدفء ضئيل يكاد يغادر جسمه النحيل قام يخاطب خاطره بالمغادرة، وسار بخطوات متثاقلة كأنه جريح حرب وقاد نفسه إلى نهاية الشارع يتأمل بأعين خاشعة في تلك العمارات الشامخة في الحي المقابل، وبنوافذها وبنور مصابيحها، فقد كانت تبدو له كالجنة وسط جحيم الصقيع تزيد في نفسه العذاب، وترسم أسباب تعاسته بما تراه عيناه من دفء وراء تلك النوافذ، لم تقدر قواه على كبح مشاعره وأطلقت عيناه دموع اليأس بين خديه البريئين، تعكس ذلك الدمار الداخلي الذي أصاب كيانه وأوقد نار يأسه، وفي تلك الحال إستجمع قواه الضئيلة وأعطى العنان لقدميه راكضا إلى أقصى الشارع يقصد المجهول، أو لعله يجد ما يقيه من ويل الليلة التي لن ترحمه فيها الطبيعة بثلوجها، يركض والحزن يشق صدره ويدفع به إلى الأمام، يركض بذاكرته التي تحمل معاناته في الميتم ويركض بقلب راض بفراره، وبخاطر لا يرتاح لما نتكبده نفسه في تلك الأثناء.

وبمرأى العمارات ومسمعها حدقت بحزن إلى الطفل وهو يسقط منكبا على قفاه، ثم تنهد تنهيدة متقطعة لم يستطع الحراك من بعدها، وبصوت يكاد ينقطع يلتقط أنفاسه بصعوبة، ضعف خفقان قلبه ونبض عروقه وتجمّدت يداه وتجمّد جسمه وتسمّر في الأرض، وحشرجت أنفاسه الأخيرة في صدره

وزمجرت في جوفه وانقطع منه خيط الحياة حتى أصبح جثة جامدة، ألبستها الثلوج كفنا أبيض من العراء.

الفهرس

كلمةُ الكاتب..... 5

الزَّمن القادم..... 8

تجربة غريبة.....15

يمينة.....22

الروهينـقا.....35

جرعةٌ زائدة 43

حِوارٌ تافِه 52

مَجنونُ البصة 58

آيَةُ الزَّمان 62

أَشجارُ الزَّيتون 69

تَعبيرٌ رَكيك 77

خِيَّانَةُ الوَطَن.....82

اليَتِيم 86